

الثقافة العربيّة

أسبق من ثقافة اليونان والعبريين

عباس محمود العقاد



٢٥٨



الهيئة المصرية العامة للكتاب

اهداءات ٢٠٠١

الدكتور/ القطب محمد طبلية

القاهرة

الثقافة العربية

أسبق من ثقافة اليونان والعبريين

عباس محمود العقاد

رقم المكتبة
٨ ص

حقيقة مفاجئة

أقدم الثقافات الثلاث

وهذه الثقافات الثلاث هي : العربية واليونانية والعبرانية .

أقدمها في التاريخ هي الثقافة العربية ، قبل أن تعرف أمة من هذه الأمم باسمها المشهور في العصور الحديثة .

وهذه حقيقة من حقائق التاريخ الثابت الذى لايحتاج الى عناء طويل في اثباته ، ولكنها على ذلك حقيقة غريبة تقع عند الكثيرين من الأوربيين والشرقيين ، بل عند بعض العرب المحدثين ، موقع المفاجأة التي لا تزول بغير المراجعة والبحث المستفيض .

وقد كان ينبغي أن يكون الجهل بهذه الحقيقة هو

المفاجأة المستغربة ، لأن الايمان بهـذه الحقيقـة التاريخية لايحتاج الى أكثر من الاطلاع على الأبجدية اليونانية وعلى السفرين الأولين من التوراة التى فى أيدى الناس اليوم ، وهما : سـفر التـكوين وسـفر الخروج ، ولا حاجة الى الاسترسال بعدهما فى قراءة بقية الأسفار .

فالأبجدية اليونانيـة عربيـة بحروفهـا وبمعانى تلك الحروف وأشـكالها ، منسوبة عندهم الى قدموس الفينيقى وهو فى كتاب مؤرخهم الأكبر « هيرودوت » أول من علمهم الصناعات .

وسـفر التكوين وسفر الخروج صريحان فى تعليم الصـالحين من العـرب لـكل من ابراهيم وموسى عليهما السـلام . فابراهيم تعلم من ملكى صـادق ، وموسى تعلم من يثرون امام مدين ، وشاعت فى السفرين رسالة « الآباء » قبل أن يعرفوا باسـم الأنبياء ، لأن العبرانيين عرفوا كلمة « النبى » بعد وصـولهم الى أرض كنعان واتصالهم بأئمة العرب بين جنوب فلسطين وشمال الحجاز .

فيحق العجب ممن يجهـل هذه الحقيقة التاريخيـة

المسجلة بالكتابة منذ ألوف السنين ، بل بالحروف التى سبقت الكتابة والكتاب •

الا أن الاشاعة الموهومة كثيراً ما تطغى على الحقيقة المسجلة • ولاسيما الاشاعة التى تحتمى بالصولة الحاضرة وتملأ الآفاق بالشهرة المترددة • وقد أشاع الأوربيون فى عصر ثقافتهم وسلطانهم أن أسلافهم اليونان سبقوا الأمم الى العلم والحكمة ، واختلط على الأوربيين كما اختلط على غيرهم قدم التوراة بالنسبة الى الانجيل والقرآن وقدم الاسرائيليين بالنسبة الى المسيحيين والمسلمين ، فتوهموا أن العبرانيين سبقوا العرب الى الدين والثقافة الدينية ، وكتابهم نفسه صريح فى حداثة اسرائيل وحداثة ابراهيم من قبله بالنسبة الى أبناء البلاد العربية •

وليس أعجب من الجهل بالحقيقة التى تظهر هذا الظهور •

ليس أعجب من هذا الجهل الا أن تكون الأوهام المشاعة بهذه القوة عند أقوى الأمم وعند أشهرها بالعلم والثقافة •

فلو لم يكن فى الصفحات التالية الا أنها تكشف هذه الأعجوبة فى ناحيـة من نواحيها لكان ذلك حسبها من سبب يوجب علينا كتابة هذه الرسالة • فهى تفصيل لما فى هذه الأسطر القليلة من اجمال ، وأيسر تفصيل كاف فى مجال كهذا المجال •

من هم العرب

وجد العرب فى ديارهم قبل أن يعرفوا باسم العرب بين جيرانهم ، وكانت لهم لغة عربية يتكلمونها وتمضى على سنة التطور عصراً بعد عصر ، الى أن تبلغ الطور الذى عرفناه منذ أيام الدعوة الاسلامية .

وهذه هى القاعدة العامة فى تسمية الأمم وفى تطور اللغات ، فليس العرب بدعا فيها بين أمم المشرق والمغرب .

فالهند — مثلا — كانت عامرة بسكانها قبل أن يسمى نهرها بنهر « الهندوس » وقبل أن يطلق اسم هذا النهر على شبه الجزيرة كلها .

والحبشة كانت عامرة بقبائلها المتعددة قبل أن يسميها العرب بهذا الاسم ويقصدون به بلاد الأحباش أى السكان المختلطين ، وقبل أن يسميها اليونان باسم « أثيوبية » أى

بلاد الوجوه المحترقة وقبل أن يسميها العبرانيون باسم بلاد الكوشيين لأنهم ينسبون أهلها الى كوش بن حام ابن نوح ٠

وكانت بلاد السكندناف معمورة قبل أن يسميها أهل الجنوب بلاد « النورديك » أى الشماليين ٠

وكانت انجلترا معمورة بطائفة من السكان بعد طائفة ، يوم أطلق عليها اسم انجلاند أو انجلترا ، أو أرض الأناجلة angles الذين قدموا اليها فى القرن الخامس بعد الميلاد ، ومن ملوكها من كان يحلوله أن يسميها بلاد الملائكة Angellykes لأن البابا غريغورى اختاره لها بدلا من اسم بلاد الأناجلة الذى يشبهه فى نطقه Engeliscé ٠٠ فراح بعضهم يرسم صورة « ملائكية » على عملتها الذهبية ، والتبس الأمر على أتباعهم فأوشك أن يخلط عليهم الحقيقة لولا قرب العهد باسم الأناجلة واسم موطنهم المعروف ٠

* * *

وكل هذه الأمم كانت لهم لغات يتكلمونها قبل ألفي

سنة ولا يتكلمها اليوم أبناؤهم على النحو الذى كان يفهمه آباؤهم ، ولا يشذ عن ذلك أمة من الأمم ولا لغة من اللغات .

* * *

وقد مضى على العرب أكثر من ألفى سنة وهم معروفون بهذا الاسم الذي يطلقونه على أنفسهم ويطلقه عليهم غيرهم ، ولا يزال أصل التسمية وتاريخ اطلاقها غير معروفين على التحقيق الى اليوم .

هل أطلق عليهم اسم العرب لأنهم كانوا يسكنون موقع الغرب من أمة أخرى يحل فيها حرف العين محل حرف الغين كما يحدث فى بعض اللهجات ؟

هل أطلق عليهم هذا الاسم من العرابة بمعنى الجفاف أو الصحراء فى لغة بعض الساميين بشمال الجزيرة ؟

هل أطلق عليهم نسبة الى يعرب بن قحطان أو نسبة الى « عربة » من أرض تهامة كما يقول ياقوت ؟

ان مؤرخى العرب يختلفون فى ذلك كما يختلف فيه غيرهم . ويقول ياقوت فى معجم البلدان بعد أن أشار

الى ذلك : « ان كل من سكن جزيرة العرب ونطق بلسان أهلها فهم العرب ، سموا عربا باسم بلدهم العربات • وقال أبو تراب اسحاق بن الفرح : عربة باحة العرب ، وباحة العرب دار أبى الفصاحة اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام •• أما النبطى فكل من لم يكن راعيا أو جنديا عند العرب من ساكنى الأرضين فهو نبطى •• » •

وكما قيل ان العرب سموا بهذا الاسم لأنهم نزلوا الى الغرب من منازل غيرهم ، يقال انهم سموا شرقيين Saracena عند قوم من أوربة ، وأن الاسم فى أصله كان يطلق على قبيلة عربية تسكن الى الشرق من جبل السراة • ولعلهم سموهم « سراتيين » نسبة الى الجبل نفسه وتحرف الاسم بلغات الأوربيين الى سراسين ! •

نذكر هذه الخلافات لنقول ان وجود العرب فى ديارهم سابق لها متقدم عليها ، وان الثقافة العربية ينبغى أن تنسب الى أمتها قبل أن تسمى بهذا الاسم أو بذاك من الأسماء المختلف عليها • فلا اختلاف على نسبة الثقافة الى الأمة كائنا ما كان الاسم الذى عرفت به عند جيرانها

وعند سائر الأمم التى تتحدث عنها • ونختار لها اسمها على حسب مصادره ومناسباته فى عرفها •

* * *

ولا خلاف فى علاقة العرب الأقدمين بالجزيرة العربية ، ولا فى قدم العمران بهذه الجزيرة •

ولا خلاف كذلك فى قدم اللسان العربى فيها ولا فى أنه أقدم لسان تكلم به سكانها الأقدمون ولم يعرف لهم لسان قبله مخالف له فى أصوله وخصائصه التى تميز بها بين اللغات العالمية •

أكان المتكلمون بهذا اللسان قبل ثلاثين قرنا مقيمين بالجزيرة العربية أم كانوا مقيمين فى موطن آخر ثم هاجروا اليها ؟

هنا تختلف الأقوال بين مواطن ثلاثة ، هى الحبشة وبادية الشام وأعالى العراق •

لكن الحبشة ليست مصدر الحاميين والساميين فى جهة واحدة • فالساميون أحرى أن يكونوا وافدين اليها

على قلة محدودة ، وليس من الموافق للأوضاع التاريخية ولا للمألوف من الهجرة هناك أو فى جهات أخرى أن يكون الساميون المنتقلون من الحبشة أكثر من عشرات أمثالهم في موطنهم الأصيل بالبلاد الحبشية • ولم يحدث فى عصور التاريخ المعروف أن كان المهاجرون من الحبشة الى جنوب الجزيرة يزيدون عددا على الذين يهاجرون من جنوب الجزيرة اليها •

كذلك لم يحدث فى حدود التاريخ المعروف أن ترحل الجماعات الكثيرة من بلاد الهلال الخصيب أو من أعالى العراق الى الصحراء العربية • فليس هذا مما حدث فى الواقع ولا مما يوافق المعهود فى بواعث الهجرة وحركاتها المألوفة •

فمن المألوف أن يحدث الجفاف والجدب فى البلاد الصحراوية فيرحل عنها أهلها ، ومن التاريخ الواقع أن هذا قد حدث فعلا غير مرة فى هجرة القبائل من جنوب الجزيرة وأواسطها الى بلاد الأنهار أو بلاد الخصب الدائم والمرعى الموفور ، ولكنه لم يؤلف ولم يحدث قط أن

ينعكس الأمر فترحل القبائل أفواجا أفواجا من أرض الماء والمرعى الى أرض تتخللها الصحارى الواسعة ، ويطرأ عليها الجفاف والجدب فى عهود متلاحقة ، تكاد أن تنتظم فى مواعيدها وأدوارها .

فمن الثابت أن جنوب الجزيرة كان مأهولا قبل ثلاثة آلاف سنة ، وكانت له عمارته ومبانيه التى لا تنشأ فى قرون قليلة ، فهل كان وفود هؤلاء الى الجنوب بعد سكان آخرين سبقوهم ثم انقرضوا أو انهزموا وخلفهم الوافدون على بلادهم ؟ فمن هم أولئك السكان الأولون ؟ وما لغتهم ؟ وما الداعى الى افتراض وجودهم ؟ ومن أين جاءهم الوافدون اللاحقون وتغلبوا عليهم بالقوة التى تهزمهم ؟ وما هى لغتهم وعلاقتها بالعربية ؟

كل ما يمكن أن يقال عن ذلك انه تخمين لا دليل عليه ولا موجب له ولا موافقة بينه وبين تجارب الواقع فى أماكن الهجرة المطروقة من قديم الزمن داخل الجزيرة العربية أو من حولها .

ولا صعوبة فى تصور الهجرة من الجنوب الى الشمال

على حسب التجارب الواقعة ، فلا تضطرنا وقائع التاريخ الى السؤال عن أبناء البلاد الأصلاء فى العراق أو بادية الشام أين ذهبوا ومن هم فى أصولهم وما هى لغاتهم وأنباؤهم ، فان التاريخ يدلنا عليهم وعلى بقاياهم ، وآثارهم حيث أقاموا قريبة من مواطنهم سواء كانوا من السومريين أو من الآريين أو من الطورانيين على التخوم الفارسية أو تخوم الصين ، بعضهم لبث فى الأرض ، وبعضهم جلا عنها الى ماوراء حدودها ، وكلهم ترك من مخلفاته ما يتركه المغلوب المقيم أو المغلوب الذى زال عن البلاد .

***

فالثقافة العربية اذن هى ثقافة الأمة التى نشأت تتكلم اللغة العربية وعاشت تتكلمها كما كانت على الألسنة فى كل دور من أدوارها على سنة التطور فى جميع اللغات .

وقد كان أشهر اللغات السامية وأشيعها فى أواخر القرن الرابع قبل الميلاد ثلاثا بين جنوب الجزيرة وشرقها الى الشمال وغربها الى الشمال ، وهى : اليمنية والآرامية والكنعانية ، مما يدل على أنها نبتت فى الجزيرة من الجنوب

الى مواطن الهجرة التى درجت عليها القبائل منذ فجر التاريخ ، فى طريق بحر العرب شرقا الى وادى النهرين ، أو طريق البحر الأحمر غربا الى فلسطين .

ثم شاعت الآرامية وغلبت على سائر هذه اللهجات وتفرعت منها النبطية التى اتفقت الروايات على أنها أم لهجات الحجاز . ولم تكن الآرامية بعد شيوعها غريبة عن المتكلمين بالكنعانية أو الحميرية وعن الكاتبين بالحروف النبطية أو حروف المسند . فكان المقيمون والراحلون بين هذه الأرجاء يتخاطبون بها كما يتخاطب أبناء الأقاليم فى القطر الواحد ، أو كما يتخاطب أبناء وادى النيل اليوم من الاسكندرية الى الخرطوم ، مع اختلاف اللهجات والألفاظ فى بعض المفردات .

ونحن نعلم أن مؤرخى العرب كانوا ينسبون شعوب العرب البائدة جميعا الى « ارم » ويسمونهم بالأرمان كما جاء فى تاريخ سنى الملوك لحمزة الأصفهانى . ويجوز أن يكون الآراميون من سلالة هؤلاء الأرمان هاجروا الى وادى النهرين فى تاريخ مجهول ، ولكن تاريخهم المعلوم

يرجع الى عهد دولتهم التى حكمت بابل ، وقام منها بالأمر حمورابى صاحب التشريع المشهور (سنة ٢٤٦٠ ق م) حيث سادت اللغة الآرامية وادى النهرين وبادية الشام وأرض كنعان وبلاد الأنباط ، وظهرت لهجتها العامة ـ كلاما وكتابة ـ فى كل قطر من هذه الأقطار .

يقول صاحب كتاب « الأبجدية : مفتاح تاريخ الانسان » « الآرامية فرع كبير يرجع الى الهجرة السامية الثالثة ذكرت فى مصادر التوراة وفى الكتابة المسمارية . ويطلق اسم آرام الذى ورد فى التوراة على سلالة عنصرية كما يطلق على الاقليم الذى تسكنه تلك السلالة ، وجاء فى أسماء الأمم بسفر التكوين أن آرام جد الآراميين وقيل عنه انه ابن سام ، وجاء فى موضوع آخر انه حفيد ناحور أخى ابراهيم ، ويقال عن يعقوب انه آرامى تائه ، وعن أمه وزوجاته انهن آراميات . وباستثناء لفظة غامضة فى الحفائر الأكادية فى النصف الثانى من الألف الثالثة قبل الميلاد ، تعتبر رسائل تل العمارنة المسمارية فى القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد أقدم اشارة اليهم باسم اخلام Akhlamn أو Akhlami أى الأحلاف الذين

يظن أنهم هم أحلاف آرام المذكورين فى وثائق القرن الثانى عشر قبل الميلاد • وهم يسمون فى المصادر الأشورية (أروميو) أو (أراميو) وجمعهم آرامى » •

الى أن يقول : « ان موطن الآراميين الأول غير معروف » • وهم يوصفون فى ألواح تل العمارنة التى تقدم ذكرها بأنهم أفواج مترحلة مغيرة ، ويرجح أنهم قدموا من جهة الشرق الشمالى لبلاد العرب الى بادية الشام من طريق ، وقدموا من الطريق الآخر الى العراق • وعند نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد انتهى سلطان الحيثيين والمتنيين Mitanni على تلك الأرض • وظهرت الأمارات الآرامية الصغيرة فى الشمال الشرقى والشمال الغربى من وادى النهرين ، ثم طرأت على توزيع السكان فى سورية الشمالية بعد استقرار الموجة الآرامية بين القرنين الثانى عشر والحادى عشر قبل الميلاد طوارىء واسعة النطاق ••• واغتنمت قبائل الآراميين فرصة هذه الطوارىء فأقامت بقوة السلاح ووفرة العدد سلسلة من الممالك الصغيرة فى أخصب المواقع من شمال العراق

وجنوبه الى شرق البادية السورية ، وأمكن بفضل تدجين الجمل العربى حوالى نهاية القرن الثانى عشر قبل الميلاد تيسير طرق القوافل تيسيرا كبيراً . فأقيمت فى جوانب البلاد مراكز للتجارة الغنية ، أشهرها تدمر أو بلد النخيل » .

وبعد الاشارة الى أدوار الضعف التى انتابت الآراميين بعد ذلك قال :

« ان فقدان الحرية السياسية لم يكن معناه نهاية التاريخ الآرامى ، بل كان هذا الضعف الذى أصاب الحكومة فاتحة التفوق فى الثقافة الآرامية ومسائل الاقتصاد الذى عم آسيا الغربية .. فاصطبغت سورية كلها وجانب كبير من وادى النهرين بالصبغة الآرامية ، وأصبحت اللغة الآرامية هى اللغة الدولية فى ذلك العهد ، وأصبحت على عهد الدولة الأخميدية الفارسية احدى اللغات الرسمية فى الامبراطورية ، ولساناً عاماً يتكلم به التجار من مصر الى آسيا الصغرى الى الهند . وبلغ من قوة اللغة الحيوية أنها شاعت فى الاستعمال بعد ألف سنة من ذهاب الدولة

الآرامية ، وعاشت اللهجات التى تفرعت عليها قروناً أخرى فى بعض القرى النائية (١) » .

وتمام هذا الكلام عن غلبة الآرامية أنها كانت تنازع العبرية بين اليهود وهى لغتهم الدينية . ومن ذلك ما جاء فى الاصحاح الحادى والثلاثين من سفر التكوين « أنهم أخذوا حجارة وعملوا رجمة ودعاها لابان (يجر شهدوتا) .. وأما يعقوب فدعاها جلعيد ، وقال لابان : هذه الرجمة شاهدة بينى وبينك اليوم » .

ومعنى « يجر شهدوتا » بالآرامية حجر الشهود ، وهى قريبة من لفظها ومعناها باللغة العربية الحديثة ، أو هى اللغة العربية كما كانت تنطق فى ذلك الدور من أطوارها .

ثم غلبت الآرامية على العبرية فى المعابد والكتب الدينية ، فترجمت اليها كتب التوراة والتلمود ، وكتبت بها بعض الأسفار أصلا من عهد عزرا ودنيال . فلما كان عصر الميلاد كانت الآرامية هى اللغة التى يتكلمها السيد

---

(١) The Alphabet. A Key to the History of Mankind, by David Diringer.

المسيح ويجرى بها الخطاب بينه وبين تلاميذه وبينه وبين المستمعين اليه فى عظاته ووصاياه .

جاء فى الاصحاح الخامس من انجيل مرقس حكاية عن السيد المسيح : « وأمسك يد الصبية وقال لها : طليثا قومى ، وتفسيره .. لك أقول قومى » .

وجاء فى الاصحاح الرابع عشر : « وقال يسوع : يا أبا ــ الأب ــ كل شىء مستطاع لك » .

وجاء فى الاصحاح الخامس عشر منه : « وفى الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم : الوى . الوى . لما سبقتنى ، وتفسيره : الهى . الهى . لم تركتنى ؟ .. ومعنى سبقتنى هنا « جاوزتنى وتخليت عنى » كما يمكن أن تعنى اليوم بالعربية التى نتكلمها .

وعلى ذلك يصح أن نقول : ان الآرامية هى عربية تلك الأيام فى مواطنها ، وأنها قريبة جداً من اللغة العربية الفصحى بعد تطورها نحو ثلاثة آلاف سنة لا يستغرب أن يحدث فيها مثل هذا الاختلاف فى نطق الألفاظ وتركيب بعض العبارات .

قال صاحب كتاب الكنز فى قواعد اللغة العبرية وهو

يتكلم عن الآرامية ويسميها البابلية : « ثم انظر فيما يكون من التشابه الظاهر بين العربية والبابلية ولاسيما في الاعراب وحركاته ، كالتنوين مثلا . فهو في البابلية ميم وفي العربية نون ، وهذان الحرفان من أحرف الابدال ، ونحن نعرف أن من العرب من يجيز ابدال أحدهما بالآخر ، ومنها علامة الجمع : فهي في البابلية الواو والنون كما أنها في العربية الواو والنون أيضاً ، وفي السريانية الياء والنون ، وفي العبرية الياء والميم ، ومنها أن جميع الأفعال في البابلية أقرب الى صيغها في العربية . فصيغ الأفعال التي وجدوها في هذه اللغة تبلغ اثنتي عشرة صيغة ، وأكثر هذه الصيغ مشهور معروف في العربية والعبرية والسريانية (١) » ..

* * *

وجملة القول أن الثقافة الآرامية عربية في لغتها ونشأتها ونسبتها الى عنصرها ، ولا يمكن أن تعرف لها نسبة الى أمة غير الأمة العربية في عهودها الأولى . فكل ما استفاده العالم من جانبها فهو من فضل هذه الأمة على الثقافة العالمية .

---

(١) كتاب الكنز لمؤلفه الدكتور محمد بدر .

أسماء أخرى

بعد تحقيق المقصود باسم العرب فى الزمن القديم نستطرد الى تحقيق أسماء الأمم والبلاد التى عاصرت العرب فى تلك الحقبة كما عرفها اليونان وانتقلت منهم الى الأوربيين والشرقيين بعد شيوع الثقافة اليونانية • فان تحقيق هذه الأسماء لازم لمعرفة المدى الذى انتهت اليه علاقات اليونان بتلك الأمم ، وتحقيق ما استفادوه منها أو استفادتهم منهم على اختلاف الروايات والدعاوى فى الأزمنة المتأخرة •

فاليونان يتوسعون كثيراً فى تسمية البلاد والأمم واطلاق الاسم على موضعه وعلى المواضع التى تجاوره فى بعض الأحوال • وقد يتفق لهم عكس ذلك فى تخصيص جزء من الأرض بالاسم الذى يعمها ويشملها مع غيرها ، لرابطة المشابهة والجوار •

ومن ذلك أنهم أطلقوا اســم ســـورية على الاقليم المشهور بين شواطىء البحر الأبيض الشرقية وبلاد الروم وتخوم العراق ، ثم توســعوا بها حتى شــملت « اشورية » وأصبح اسم السريان عندهم علماً على الآراميين فى الرقعة الواسعة التى يسكنونها من وادى النهرين الى سيناء وأطراف الحجاز .

وهم يطلقون اســم فينيقية على شاطىء فلسطين الى الشـــمال والجنوب من مدينـــة صـــور التى اشتهر أبناؤها الملاحون عندهم باســم الفينيقيين ، ولــكن فينيقية كما يدل عليها اسمها كانت اسماً لبلاد النخل فى الاقليم كله ، من كلمة فينقس عندهم بمعنى النخلة Φοινξ وتقابلهـــا عند الرومان كلمة Palmyra التى أطلقت على مدينة « تمر » أو « تدمر » فى شرق البقاع ... و « تمــر » هى الكلمة الســامية التى تقابل كلمة Palm بمعنى النخلة فى بعض اللغات الأوربية الى اليوم .. ولا يخفى أن أرجح الأقوال عن أصل الفينيقيين الأقدمين أنهم نشأوا عند الخليج العربى فى بلاد النخيل وتحولوا منه الى فلســطين يوم كانت وطناً مشـــهوراً بكثرة ما فيهــا من النخيل .. واســـم مدينتهم

« قرطاجة » التى بنوها بعد ارتحالهم من فلسطين الى شاطىء البحر الأبيض الجنوبى قريب جداً ـ فى أصله ـ من الكلمة الآرامية « قارة حداثة » أى القرية الحديثة ، وتحريفها الى قرتاشة وقرطاجة على ألسنة الرومان قريب جداً بعد اسقاط الحاء التى لا ينطق بها الغربيون •

واليونان وضعوا اسم « أثيوبية » ـ ومعناه الوجوه المحترقة ـ وأرادوا به البلاد التى عرفها العرب قديماً وحديثاً باسم الحبشة ، ثم شملوا بها اليمن وسموها بأثيوبية الآسيوية ، وأوشكوا بعد ذلك أن يعمموا اسم الأثيوبيين على الأفريقيين السود جميعاً ، وهم الكوشيون فى عرف اليهود والناقلين عنهم من شراح الكتب الدينية •

ومصر القديمة سماها اليونان باسم مدينة كبتوس « قفط » ثم أطلقوا اسم « جبتوس » على القطر كله ، وهو الاسم المشهور الآن فى اللغات الأوربية •

والهند سميت كلها باسم نهرها المعروف فى الغرب الشمالى منها ، ومازالت حتى أصبح يقال عن « الأندوس » انه نهر فى الهند ؟ وهى منسوبة اليه •

وعلى هذا يحدث أحياناً أن يتكلم اليونان عن أثيوبى وهو يمنى ، أو عن فينيقى وهو سـورى ، وعن أشورية assyria وهم يقصــدون ســورية syria وعن هؤلاء جميعاً وهم يقصدون المتكلمين بالآرامية التى كانت أوسع اللغات انتشاراً بين جميع هذه البلاد .

الكتابة العربية

ثبت من الآثار المحفوظة أن المصريين الأقدمين تطوروا بالكتابة من رسم الصور الى رسم المقاطع الى رسم الحروف التى تسمى اليوم بالحروف الأبجدية ، وتسمى عند الأوربيين عامة بحروف « الألف باء تاء » alphabet نقلا عن العربية .

وقد تبينت رسوم بعض الحروف المصرية القديمة من ألواح سيناء ، وهى حلقة الاتصال بين الحروف الأولى وبين الحروف على أشكالها المتقاربة التى تطورت بعد ذلك فى مختلف اللغات .

الا أن الحروف المصرية القديمة كانت مقصورة على الكتابة الدينية وكتابة الدواوين وما شابهها من المراجع الرسمية ، وانما انتشرت فى المعاملات العامة بعد أن نقلت من سيناء الى البلاد الواقعة على طرق التجارة الشرقية ،

بجميع مواصلاتها برا وبحراً من الهند الى شواطىء البحر الأبيض وحدود البلاد المصرية .

وقد كانت مراكز التجارة الكبرى على هذه الطريق في بلاد العرب ، من خليج العرب الى عدن الى خليج العقبة ، الى مدن فلسطين ومدن الحدود الشرقية فى مصر القديمة .

ولم يكن من المصادفة المجهولة أن تظهر في لغة العرب خطوط الحرف المسمارى وخطوط الحرف المسند وخطوط الحرف النبطى بين شمال الحجاز وجنوب فلسطين .

فان التجارة التى تحتاج الى المعاملة الكتابية تجرى على خط المواصلات من خليج العرب الى عدن الى العقبة الى ما جاورها من بلاد الأنباط والكنعانيين ، وهذه هى على التوالى مواطن الخط المسمارى والخط المسند والخط النبطى وما تفرع عليه .

وتجرى المواصلات على غير هذا الخط من طريق البادية بين وادى النهرين وشواطىء البحر الأبيض ، فليس

من المصادفة المجهولة أيضاً أن توجد على طريق هذه المواصلات بقايا الكتابة الصفوية والكتابة اللحيائية والثمودية فى حوران وتدمر والحجر من ديار ثمود • ففى هذا الطريق يتقابل أصحاب القوافل من الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق ، كما يتقابلون بين الحجاز والشام وبين الشام والحجاز •

والغالب على التجارة العربية أنها تسلك طريق البر على ظهور الجمال ، ولكنها لم تكن معزولة عن البحر كما يتوهم الكثيرون لاعتقادهم أن أصحاب سفينة الصحراء لا يعرفون سفينة غير الجمل ، ولا يركبون مطية البحر أو يحسنون قيادتها كما يحسنون قيادة المطايا على الرمال • فان العرب ركبوا البحر قديماً فى المحيط الهندى وسبقوا الملاحين الى شواطىء أفريقية الشرقية فى الجنوب ، ووجدت فى بلادهم صناعة بناء السفن عند العقبة وعمان ، ولم يكن سليمان الحكيم ــ بطبيعة الحال ــ أول من بنى سفناً بجوار العقبة ، ولكنه وجد هذه الصناعة وعمل سفنه فيها كما جاء فى سفر الملوك الأول • « وعمل الملك سليمان سفناً فى

عصيون جابر التى بجانب أيله على شاطىء بحر سوف فى أرض أدوم » •

وسميت هذه الجهة قبل الاسلام بفرج الهند كما قال الطبرى ، لأنها كانت ولاشك تتلقى التجارة من طريق البحر والبر • ولاتزال على اتصال بالملاحة البحرية مع اتصالها بالقوافل على ظهور الجمال •

ويقول المسعودى ان الملاحين العرب كانوا يديرون قيادة السفن ويدونون تجاربهم فى الكتب المتوارثة عن آبائهم من زمن قديم ، وكان فى بحر الهند كما قال : « مشائخ ولدوا ونشأوا من ربابين وأشاتمة ووكلاء وتجار ، ورأيت معهم دفاتر فى ذلك يتدارسونها ويعولون عليها » •

ومثل هذه الصناعة لا تنشأ فى سنوات ولا فى أجيال قليلة • فلابد لها من أجيال بعد أجيال طوال •

على أن الأمر المهم فى هذا التاريخ أن المواصلات كانت قائمة دائمة على هذه الطرق القديمة من أوائل عصورها ، وليس بالمعقول أن يكون الأمر غير ذلك بحكم

الموقع وحكم العلاقة بين المشرق والمغرب • فاذا استخدم الناس الكتابة فى معاملاتهم التجارية فليس فى العالم المعمور يومئذ موقع أولى باستخدامها من البلاد العربية ، وليس من المصادفة كما تقدم أن تكون الخطوط المسمارية وخطوط المسند وخطوط الحروف النبطية أول ما تطور من حروف الأبجدية بعد مرحلتها التى بلغتها فى ألواح سيناء •

ومن الواضح أن صناعة السفن لم تكن عامة فى بلاد العرب وما جاورها عموم الملاحة على شواطئها فى البحرين: الأبيض والأحمر • وانما توجد صناعة السفن حيث تتيسر وسائلها من الأخشاب والمعادن ومواد اللحام والطلاء ، وحيث تتيسر الى جوارها مراسى السفن للبناء والاصلاح والمأوى ، ولهذا كانت شواطىء البحر الأبيض الشرقية أعمر الشواطىء بمراكز هذه الصناعة ومراكز الملاحة معها • لأنها نهاية الطرق البرية من قبل آسيا ، وبداية الطرق البحرية الى القارتين الأوربية والأفريقية ، والى جوارها غابات الشجر الذى يصلح لبناء السفن وموارد المواد المنوعة التى تدخل فى صناعتها • فكانت شواطىء فلسطين ولبنان أعمر الشواطىء الشرقية بأسباب الملاحة

والملاحين ومراكز التجارة التى تصدر من البلاد أو ترد اليها من خارجها ، وكانت هذه الشواطىء هى التى اشتهرت عند اليونان باسم « فينيقية » ونسبوا اليها كل ما استوردوه من بلاد العرب على طريقها ، وتواتر عندهم أنها البلاد التى تلقوا منها الحروف وعلم الكتابة كما سيأتى فى الفصول التالية .

الأبجدية اليونانية

تعلم اليونان الكتـــابة وأخـذوا رسم الحروف من « قدموس » الفينيقى كما قالوا فى تواريخهـم ورووا قبـل ذلك فى أســاطيرهم المتــواترة ، مما يدل على قـدم العهد باعتمادهم فى ثقافتهم على المصادر الفينيقية •

وأيا كان قـول المؤرخين والرواة فهذه المســألة ـ مسألة الأبجدية ـ من المسائل التى لا حاجة بها الى التاريخ والرواية • لأن أســماء الحروف وأشكالها ومعانيها شاهدة بانتقالها من المصادر العربية ، سواء كانت فينيقية أو آرامية أو يمنية من الجنوب •

فالأبجدية تســمى عند اليونان بالا « ألفابيتا » وتبدأ بالألف والبــاء والتاء ، ثم تتوالى فيها حروف كثيرة بلفظها العربى فى العصر الحاضر على وجه التقريب •

وليس لأسماء الحروف معان مفهومة فى اللغة اليونانية،

ولكنها بهذه الأسماء مفهومة المعنى فى لغتنا العربية العصرية ، فضلا عن اللهجات العربية الغابرة .

وأقرب هذه الحروف الى المعانى العربية الشائعة فى أيامنا حرف الباء من بيت ، وحرف الجيم من جمل ، وحرف العين من عين ، وحرف الفاء من فم ، وحرف الكاف من كف ، وحرف الميم من ماء ، وحرف الياء من يد .

وأشكالها المرسومة قريبة من أسمائها الأولى كما يرى فى شكل البيت وشكل رقبة الجمل وشكل العين وشكل الفم ، وغيرها من الأشكال .

واذا رجعنا الى نطق أسماء الحروف كما شاعت أول استعمالها فى البلاد العربية تبينت العلاقة بين أشكالها ومعانيها جميعا بغير استثناء حرف واحد من الحروف ، فكلها أوائل كلمات مفهومة من بقايا الكتابة التصويرية التى ترسم الشكل كله وتأخذ من الكلمة حرفها الأول عند الكتابة بالحروف .

وليس من اللازم أن تكون الحروف كلها قد شاعت وعمت على صورة واحدة فى وقت واحد ، اذ من المحقق

أن حروف العلة تأخرت زمنا طويلا بعد الحروف الساكنة كما نرى من كتابة المبتدئين الى اليوم • فان الطفل الناشىء الذى يتعلم الهجاء لا يكتب حروف المد اذا سمع الكلمة ممن يمليها عليه •

كذلك يثبت من تاريخ الكتابة أن الحروف المتشابهة نشأت على التدريج ، لتميز الأصوات المتشابهة أو التى يسهل الابدال بينها ، كالتاء والثاء ، والحاء والخاء ، والدال والذال ، والعين والغين ، وغيرها من المتشابهات فى نطقها ورسمها ، فانها تتبدل فى لفظها اليوم كما كانت تتبدل منذ مئات السنين ، ويتبين من تاريخ التدرج فى الكتابة أن الحروف المتشابهة وضعت حينا بعد حين للتمييز بينها بعد التباس النطق بها ووضوح الحاجة الى تمييزها ببعض العلامات ، كعلامات النقط والتذييل •

ولهذا يرجح المؤرخون أن اليونان نقلوا حروفهم من البلاد العربية جميعا ولم يقتبسوها كلها دفعة واحدة من الفينيقيين • ويرى من كتاب خيرشوف Kirchoff عن الأبجدية اليونانية أن حروف الجيم واللام والسين Γ.Λ.Σ.

أقرب الى حروف المسند أى الحروف اليمنية فى الجنوب ، منها الى الحروف الفينيقية أو حروف النبط فى الشمال •

وقد يعزى الاقتباس الى رواد الرحلات من اليونان فى بلاد « العربية السعيدة » أو بلاد اليمن كما عرفوها • ومن الباحثين من يرجع بها الى عهد سابق لعهد الرحلات اليونانية بزمن طويل ••

ويخطر لهؤلاء الباحثين أنها أثر من آثار حضارة عربية موغلة فى القدم وصلت الى بلاد اليونان ، كما وصلت الحضارة العربية الى الأندلس فى الأزمنة الحديثة بعد الميلاد •

يقول مرجليوث فى الصفحة الحادية عشرة من كتابه عن الصلات بين العرب وبنى اسرائيل :

« يرد على الخاطر سؤال عن أسماء المواقع التى تظهر على خريطة اليونان القديمة كعسكرا : أى المعسكر ، وفندس : أى الجبل من الفند وهو الجبل العظيم باللغة العربية ، ولاريسا : أى العريش أو الخيمة ، الى أمثال هذه الأسماء التى تشبه أسماء المواقع فى الأندلس بعد الفتح الاسلامى ، فيبادر الينا السؤال : ألا تشير هذه

الأسماء الى حضارة عربية عريقة وصلت الى اليونان ومعها حروف الأبجدية قبل أن يصل اليها الفينيقيون بحروف تخالفها (١) » .

وليس هذا الاحتمال ببعيد ، لأن آثار الكتابة العربية شوهدت فى جزر الأرخبيل بحروف عربية على غير رسم الحروف الفينيقية ، ولأن تاريخ الاحتلال الفينيقى لبلاد اليونان على قدمه ، يدل على سبق الهجرة اليها من البلاد الشرقية ، كما يدل على تتابع الهجرة قبل ذلك من الناحية الآسيوية ، حيث وصلت .

وكيفما اختلفت الأقوال عن مصادر النقل والاقتباس فلا خلاف فى أمرين : أحدهما أن الأبجدية اليونانية منقولة عن أبجدية سبقتها ، وأن هذه الأبجدية السابقة هى الأبجدية العربية التى تدل عليها ألفاظ حروفها وأشكالها ومعانيها .

واذا كانت هذه الحقيقة غنية عن أقوال المؤرخين والرواة فلابد معها من حقيقة أخرى مثلها فى الثبوت

(١) Relations between Arabs and Israelites, by Margolioth.

والوضوح بغير حاجة الى اسناد من التاريخ أو الرواية •

تلك الحقيقة الأخرى هى انتقال لوازم الحضارة وصناعاتها الأولية على الأقل مع انتقال الكتابة وانتقال أساليب استخدامها فى المعاملات ، فان الأمة المتعلمة لا تأخذ الكتابة من معلميها وتترك ما عندهم من صناعة السفن والملاحة ، ومن معارف الفلك والجغرافية التى يعتمدون عليها فى السياحة ، ولا مناص لها من الشعور بالحاجة الى أدوات الحضارة التى يجلبها اليهم أصحاب السفن التى تدل ببنائها وبما تحمله من بضائعها على التقدم فى العلم ومرافق العيش ومطالب الحياة •

فلو لم يذكر التاريخ شيئا عما استفاده اليونان من صناعات البلاد العربية ومعالم حضارتها لكانت هذه الفوائد من حقائق البداهة التى تستغنى عن التاريخ ، ولكن التواريخ اليونانية ، بل الأساطير الشعبية ، تسجل هذه الحقيقة وتذكرها كما تذكر الحقائق المسلمة التى لا داعى لتمويهها ولا للمغالطة فيها ، ولعلهم كانوا يذكرونها بشىء من الفخر لأنهم تعلموا حيث وجدوا العلم الضرورى ولم يهملوه •

ومن العرب الأقدمين
تعلم اليونان صناعات الحضارة

يقول هيرودوت في الكتاب الخامس من تاريخه :
« والآن نذكر أن الفينيقيين الذين جاءوا مع قدموس واليهم ينسب الجفيريون ، قد أدخلوا معهم الى اليونان بعد قدومهم الى بلادهم صناعات كثيرة منوعة ، منها : صناعة الكتابة التى كانوا يجهلونها على ما أحسب ، قبل ذلك . فنقلوا حروفهم ـ أولا ـ على مثال الحروف الفينيقية بغير تصرف . ثم تغيرت مع الزمن لهجاتهم فتغيرت معها رسوم حروفهم ، وقد كان الآيونيون أكثر الاغريق الذين كانوا يومئذ يقيمون في تلك البلاد حيث نزل الفينيقيون ، فاقتبسوا الحروف الفينيقية مع تعديل قليل فى رسم بعضها . ومازالوا بعد حين يسمونها بالفينيقية انصافاً لمن نقلوها اليهم ، وقد كان الآيونيون يسمون الورق بالقديد لأنهم

كانوا يكتبون على الجلود عند ندرة صحائف الكتابة • وما برح البرابرة يكتبون عليها الى هذه الأيام • وقد رأيت بنفسى كتابة بالحروف القدموسية محفورة على بعض القوائم المثلثة فى معبد (أبولون أسمنياس) بثيبة البوطية ، رسومها تحكى الرسوم الآيونية ، وعلى احداها هذه العبارة :

« أقامنى أمفتريون من عهد مقدم التلبوية » •• فهى قريبة من عهد لايوس بن لابداكوس بن بوليدورس ابن قدموس •• وعلى قائمة أخرى نقشت هذه العبارة من شعر العروض السداسى : وهبنى سكاوس الملاكم للشمس الساطعة بعد فوزه : هبة جميلة معجبة •• ولعله سكاوس بن هيبوكون ! فان كان هو الذى وهب القائمة ولم يكن أحد آخر يسمى بمثل اسمه فتاريخ الهبة يرجع الى عهد أوديب بن لايوس ••

« ورأيت على القائمة الثالثة كتابة نظمت من العروض السداسى يقول كاتبها : ان الملك لاودامس وهبها للشمس النافذة عند جلوسه على عرشه هبة جميلة معجبة ••

« وفي عهد لاودامس هذا ـ ابن أتوكليس ـ أخرج القدموسيون من بلادهم ولاذوا ببلاد الأنشيليين ـ على الشاطئ الغربي من ألبانيا الحديثة .. » .

ونحن ندرك قول هيرودوت أن الآيونيين ـ أي اليونان ـ نقلوا الكتابة بغير تصرف حين نعلم أنهم نقلوها بطريقتها ومادة صحفها ، كما نقلوها برسوم حروفها وألفاظها . فقد ظلوا يكتبون السطور من اليمين الى الشمال كما نكتب العربية اليوم ، وبقيت هذه الطريقة متبعة عندهم في نقوش الآنية المزخرفة الى ما بعد اقتباس الكتابة بعدة قرون ، ولم تظهر لهم نقوش من الشمال الى اليمين قبل أيام بسماتيك في القرن السابع قبل الميلاد .

ولاشك أن اليونان غبروا زمنا طويلا وهم يتلقون ثقافتهم وصناعتهم من القدموسيين بأوطانهم المختلفة من آسيا الصغرى الى حدود بلاد الألبان العصرية في الجنوب ، فلابد أن يكون هذا الزمن موغلا في القدم عدة قرون كي تمتزج أخباره التاريخية بروايات الأساطير المتداولة على ألسنة الجماهير ، فان أساطيرهم تضيف الى أخبار التاريخ التي

تنسب الى قدموس فضل تعليمهم الكتابة وبنائه لمدينة بوطية أنه كان من أصحاب المعجزات الذين تعينهم الآلهة ، وتملى عليهم مكائد الحرب والخديعة . ومنها أن قدموس قتل التنين الحارس لبعض الينابيع فى بوطية ، ونثر أسنانه على الأرض فنبتت منها شرذمة من المردة المسلحين أحاطوا به ليقتلوه ، فأوحت اليه الربة أثينا أن يلقى اليهم بجوهرة كريمة بهرتهم فتركوه واقتتلوا عليها حتى أفنى بعضهم بعضا ولم يبق منهم غير خمسة لم يقدروا عليه لأنهم خرجوا من المعمعة منهوكين مهزولين . ومن هنا يقال عن النصرة التى تنال بالثمن المرهق والخسارة الفادحة ، أنها نصرة قدموسية أو قدمية ، ويجرى هذا فى التعبيرات المجازية بين المحدثين من الأوربيين .

ويقول المعجم الأثرى انهم كانوا يعبدون هرمز رب الحكمة والمعرفة عندهم باسم قدموس ، « وأنه كان يقال عنه : انه مخترع الزراعة والحدادة وصناعات الحضارة على التعميم ، وأن الشعراء الأقدمين لم يكن لهم علم بمقدمه أكان من الشرق أم من مصر أم من فينيقية . ولما قيل أخيرا انه من فينيقية قرنوا اسمه باختراع حروف الأبجدية التى

يعرف الاغريق جيدا أنهم أخذوها من الفينيقيين (١) .

والثابت بعد هذا كله من الواقع ـ فضلا عن أخبار التاريخ ـ أن الحروف اليونانية القديمة كالحروف العربية ، وأنهم كانوا يكتبونها من اليمين الى الشمال كما نكتب العربية اليوم ، وأنها بأشكالها وأسمائها ذات معنى فى اللغات السامية ، ولا معنى لها فى لغة من اللغات الأوربية ، وأن انتقالها كان مقرونا بانتقال صناعات الكتابة وأدواتها وما يتصل بها من الصناعات الأخرى ، وأن اليونان تعلموا الملاحة وفنونها ممن سبقوهم : أى من أمم البحر الأبيض الشرقية ، وأن النقوش وأسماء المواقع فى البلاد اليونانية ترجح وصول العرب بحضارتهم الى تلك البلاد فى زمن قديم سابق على الأقل لشيوع أسماء « لاريسا » : أى العريش و « عسكرا » : أى العسكر وفندس Pindus أى الجبل العظيم .

على أن اقتباس اليونان من العرب يظهر لنا من تشابه

---

(١) صفحة ١٠٦ من معجم الآثار السلفية تاليف سيفرت

Dictionary of Classical Antiquities, by Oskar Seyf fert.

الكلمات فى اللغتين ولاسيما الألفاظ التى تدل على أصل متشعب فى العربية ، أو تدل على نظام المعيشة الغالب على الأمة وطول العهد به فى موطنه ومستقره •

فالبرج فى اليونانية برجوس πυργος ومادة الباء والراء ومثيلتهما أصيلة فى الدلالة على الظهور والعلو : كبرز وبرض وبرع وبرق • ومعنى البروج والتبرج والأبراج شائع فى المادة العربية •

ولاشك فى سبق العرب الى الفرس والسيف والقناة •

والفرس فى اليونانية Φοράδα والسيف Ξι:ος

والقناة أخذوها وأخذوا منها القانون بمعنى المقياس، ولا تخفى علاقة القناة والقصبة بالمقاييس فى كل لغة • ومنها الرول Rule بمعنى القاعدة ، والرولر بمعنى المسطرة فى اللغة الانجليزية •

ومن الكلمات التى تلحق بالمقاييس كلمة القسطاس δικαστής وكلمة القالب χαλοπὸς

ولاتخفى العلاقة بين كلمتى « قلم » و « قصبة » وبين

المصدر العربى لكلمة كلمَوس Κάλαμος وكلمة كسمبة Κάσαμπα اليونانيتين بمعنى قصبة ، وان يكن تاريخ استعمالها غير معلوم .

وتلحق بكلمات الكتابة الخارطة والخرطة ، والأولى عربية من خراطة السائل الذى يؤخذ من أصل ورق البردى ، ومن الخرط وهو قطع الجلد أو الصحاف التى يكتب عليها ... وتسمى الخارطة والخرطة فى اليونانية χάρτης ومنها الكرتيس أو القرطاس .

وتلحق بكلمات الملاحة كلمة سير وهى باليونانية (سيرا) σειρά وكلمة غراء وهى σνρος وهما أشبه بصناعة السفن وبالصناعة على الأجمال ، وليس أبعد من الفرض الذى يجعل هذه الكلمات منقولة عن اليونانية الى العربية ، مع العلم بسبق العرب فى الملاحة والكتابة وقياس ما ينقل فى السفن ووزنه وتقديره .

ونظير ما تقدم فى الدلالة على اقتباس اليونان دائما

من العرب فى أمثال هذه الألفاظ التى ترتبط بالمعـاملات وشئون المعيشـة ـ أنهم حولوا أسـماء أيام الأسـبوع الى الترتيب العددى أسوة بأسمائها العربية ، وغيروا منها اسم السبت والأحد بعد ظهور المسيحية ، وهل كان اقتباسهم من المسيحية الا اطرادا فى هـذه القـاعدة وجريا على هـذا القياس ؟ .

والفلسفة

والفلسفة ليست بالاستثناء من هذه القاعدة العامة فى تاريخ الثقافة الشرقيــة اليونانيــة ، خلافا لما يظنه القائلون بأن فلسفة اليونان قد نشأت فى منبتها نشأة منقطعة عن ثقافة العالم فى جملتها •

ان طاليس هو أبو الفلســفة اليونانية كمــا قال عنه أرسطو الملقب بالمعلم الأول • وقد ذكره فى كتاب ما بعد الطبيعة وقال عنه : انه مؤسس الفلسفة ، واستشهد بقوله : ان الماء مصدر جميع الأشياء ، وذكره فى كتاب الســماء واستشهد بقولة : ان الأرض جسم يطفو على الماء • وذكره فى كتاب النفس واستشهد بقوله : ان المغناطيس ذو حياة لأنه يقدر على تحريك الحديد • وذكره فى كتاب السياسة، وروى من أخباره أنه أدخل بعض التحســين على معاصر الزيتون وجمع ثروة حسنة بهذا الاختراع •

وفى الأخبار التى جمعها عنه كتاب « المرشد الى من قبل سقراط من الفلاسفة » أنه عرف أسباب الكسوف والخسوف ، وأنه كشف منزلة الدب الأصغر من منازل الفلك ، وأنه أدخل الفلسفة من مصر الى بلاد اليونان ، واهتدى الى قواعد تمكنه من قياس مسافة البعد بين الشاطىء والسفن فى البحر ، وتمكنه من قياس ارتفاع الهرم بقياس ظله ، كما اهتدى الى بعض النظريات فى حساب المثلثات والدوائر ، ويقول الكتاب بعد ذلك : ان المصادر المختلفة تنبئنا بأنه تعلم الهندسة من المصريين وأنه وخلفاءه كانوا تلاميذ للمصريين والكلدانيين . وكان ولاريب مدينا بالكثير مما عرفه فى هذين العلمين اللذين اشتهر بهما ... وان كان المفهوم أنه استخدم الأساليب العلمية فى تنظيم هذه المعرفة (١) .

ومما له معناه الظاهر فى نسبة المعارف التى استخدمها طاليس الى مصادرها أنه كان معدودا من « حكماء اليونان السبعة » وأن هؤلاء الحكماء كانوا أشبه « بهيئة مستقلة »

(١) Companion to Pre-Socratic Philosophers, by Kathleesm Freeman.

لاتنقص عن هذا العدد ، ويضاف اليها بديل ممن يخرج منها اذا ثبت أنه أقحم نفسه على الهيئة بسلطان الامارة أو الرئاسة •

ولا يخفى أن « نحلة السبعة » فى كل اقتراناتها ترجع الى مصدرها الأول من بلاد ما بين النهريين ، حيث يتكلمون عن السيارات السبع وعن الأيام السبعة وعن السوابيع المتعددة فى أعمار الأكوان ، وقد كان طاليس يعيش فى ليديا من بلاد آسيا الصغرى ، ويتلقى معلوماته من قبلها فى مسائل الفلك ومسائل النظريات الكونية وأصول الخلق والحياة ، وكان تلميذا للمصريين فى العلوم الرياضية كما يقول مؤرخوه •

فاذا قيل ان الفلسفة ليست بالاستثناء فى شئون الثقافة التى نقلها اليونان عن الشرق فهو الواقع الذى تتفق عليه مصادر التاريخ ومراجع الفلسفة ، وان كانت الفلسفة اليونانية قد تطورت كثيرا بعد طاليس ونظرائه من الحكماء ، حتى أصبحت فى عصر أرسطو وتلاميذه الأولين جديرة بالانتساب الى اليونان دون غيرهم من أمم الثقافة والحضارة فى الأزمنة الغابرة •

فلا نكران لفضل الفلسفة اليونانية على الفلسفة القديمة بمدارسها المختلفة ، ولكن الادعاء الذى ينكره كل منصف أن اليونان قد امتازوا بفلسفتهم لأنهم أبناء القارة الأوربية وأصحاب « الذهن » الانسانى المتفرد بين أذهان البشر بمزايا البحث الطليق وحب الاستطلاع لمحض العلم والاطلاع •

فاليونان لم ينفردوا بهذه الفلسفة فى جميع عصورهم، ولم يزد عصر فلسفتهم الممتازة على ثلاثة قرون ، منها مائة سنة على الأكثر تفرغت فيها فلسفتهم للبحوث الخالصة فى حقائق الوجود وأصول الأشياء على قدر المستطاع من تفرغ الفكر الانسانى لهذه الأمور •

وسبب ذلك راجع الى ظروف خاصة تتغير فيتبعها التغيير فى نتائجها حيثما كانت وحيثما كان التغيير •

نشطت حركة الفلسفة اليونانية فى العصر الذى شاعت فيه الكتابة على الورق وتيسرت فيه المواصلات بين بلاد اليونان وما حولها من البلاد الآسيوية والأفريقية •

ولم تنشط مع ذلك الا لأنها قد نشأت في بلاد لم تحكمها دولة عريقة ، ولم تكن فيها الى جانب الدولة الحاكمة دولة من دول الكهانة التي تتأصل في البلاد وتتوارث فيها أسرار المعرفة والبحث في أصول الخلق والحياة ، أو في المسائل الالهية التي يستأثر بها الكهان ورؤساء الدين •

فالبلاد التي تجري فيها الأنهار الكبيرة تقوم عليها الدول المتمكنة ، وتقوم معها الى جانب الدولة الحاكمة دولة دينية من الكهان ورؤساء الدين يسيطرون على شئون العقيدة ومباحث الفكر في أسرار الطبيعة وما وراءها من الغيب المجهولة • وعلى هذه السنة قامت كهانات الهند وما بين النهرين ووادي النيل فانفرد الكهان بالمعرفة الغيبية ولم يأذنوا لغيرهم ـ خارج المعبد ـ في بحث هذه المعرفة ودارسة « الفلسفة » التي تقوم على تحقيق « الوجود » لذاته وتحقيق صفات الموجودات العليا والموجودات المقدسة التي كانوا ينعتونها باسم الأرباب •

ولم تكن في اليونان دولة متمكنة ولا كهانة ذات سيطرة على دولتها الصغيرة ، فاتسع أمامهم مجال البحث غير متحرجين فيه ولا محاسبين عليه ، وعمدوا الى العلوم التي

استفادوها من الشرق فقالوا فيها ما يقوله كل باحث منطلق اللسان يتحدث بما يشاء كما يشاء ٠

على أنهم ما لبثوا جيلا أو جيلين حتى اصطدموا بسلطان الدين وسلطان الدولة ، فقتل سقراط وتشرد أفلاطون وقضى أرسطو بقية حياته فى عزلة واهمال ، وكان عدد الهاربين من فلاسفتهم أكثر من عدد المقيمين الآمنين ٠

وكذلك حدث فى القارة الأوربية بين صميم الأوربيين بعد قيام السلطة الدينية بينهم وانفرادها بالتفكير فى المسائل الالهية ، فان القرون الوسطى لم يظهر فيها فيلسوف أوربى واحد ، ولم يظهر فيها من ظهر بعد ذلك من فلاسفتها غير تلاميذ الشراح من العرب الأندلسيين ٠

ونحن لانعلم من آثار الشرقيين الأقدمين أنهم تركوا « فلسفة » تبحث فى أصول الوجود بغير صبغتها الكهنوتية، ولكننا لا نستطيع من أجل ذلك أن نجزم بانقطاع تفكيرهم فى هذه البحوث ولا بقصورهم عن ادراك مداها ، لأنهم لم يتركوا لنا كذلك كتبا مفصلة عن علوم الفلك والرياضة

والكيمياء التى لاشك فى اشتغالهم بها وتطبيقهم لها فى بناء الهياكل ونقش الجدران وتحنيط الموتى ورصد الكواكب وسياسة الأنهـار ، وكل مانسـتطيع أن نجـزم به أنهم لايعلنون ما عرفوه ولا يدل كتمانهم له على جهلهم اياه .

ولسـنا نريد باثبـات فضل الشرق أن نبخس فضل اليونان فى ترقية الفلسفة ، ولكننا نقرر الواقع حين نقول : ان الذين يتخذون الفلسفة اليونانية ذريعة الى اتهام الشرق بالقصور ينحرفون عن سنة الانصاف ويتورطون فى ادعاء لا دليل عليه .

تلاميذ أبديون

ان الموقع الجغرافى أنفع لنا فى المساعدة على تمحيص الروايات التاريخية التى لا تسلم ــ مع طول الزمن ــ من الخرافة ومن الاضافة ، أو من الخلط وسوء النقل والحكاية • فان للموقع الجغرافى مقتضياته التى نفهم منها ما يجوز ، وما يمتنع ، وما يحتاج الى السند أو يستغنى عنه أو يكتفى منه باليسير •

وموقع بلاد اليونان ينبئنا بالعلاقة التى توجد بينه وبين الحضارات الشرقية ، أو توجد بينه وبين حركات الأمم فى أدوار هجرتها ــ واستقرارها منذ فجر التاريخ •

فلم تنقطع علاقتها بالشرق منذ خمسة آلاف سنة على الأقل ، ولم تكن علاقتها بالشرق فى هذه العصور الا علاقة التلمذة المتتابعة على الثقافات المتتابعة فيه ، لاسيما الثقافة الروحية وثقافة النظرة الكونية العامة ، وتأتى بعدها ثقافة

المعيشة المستمدة من الصناعة وعروض التجارة .

ونحن اليوم نسمع كثيرا عن المناظرة بين الجنس الآرى والجنس السامى ، وعن مزايا كل من الجنسين فى التفكير ومبادىء الأخلاق ، وعن اقتدار كل منهما على انشاء الثقافة وحفظ الحضارة وتقويم القيم الاجتماعية والنفسية . ويدور هذا البحث كله أحيانا على مزايا اليونان فى طلب المعرفة لأنهم آريون وأوربيون ، مكانهم من ثقافة أوربة الحديثة مكان الرواد الأسبقين ، والباكورة التى تدل على الشجرة وعلى ما تحمله من ثمارها فى كل أوان .

فاذا ابتدأنا بالمسألة كلها من البداءة فالآرية نفسها صفة لم يكسبها اليونان من غير الشرق ، ولم تظهر فيهم مزية من مزاياها بغير العلاقة التى اتصلت بينهم وبينه بعد انفصالهم عنه فى زمان الهجرة الآرية .

فقد يكون اليونان آريين قدموا مع السلالة الكبرى التى انتقلت من أواسط آسيا الى أوربة الشرقية والوسطى ، وقد يكونون سكاناً أصلاء فى أوطانهم غلب عليهم أولئك الآريون المهاجرون وصبغوهم بصبغتهم فلم تبق لهم لغة غير

اللغة الآرية ، ولا عقيدة غير عقيدة الآريين الأولى فى الدين والاله والخليقة .

فهم على الحالين منتسبون الى الشرق فى ثقافتهم ، ونسبتهم هذه هى سر امتيازهم على اخوانهم الآريين الذى ذهبوا فى الهجرة الى أواسط أوربة وما وراءها .

ان الآريين الذين استقروا فى القارة الأوربية وراء بلاد اليونان الى أقصاها غرباً وشمالا قد عاشوا مئات السنين على همجيتهم الأولى فلم تنفعهم مزاياهم الآرية فى ابتداع ثقافة خاصة تنتسب اليهم. ولا فى اقتباس ثقافة من الشرق بعد ارتقائه وامتداد عمرانه لأنهم فارقوه وانقطعت صلات العلم والتجارة بينهم وبينه .

فليست « الآرية » اذن منبع الثقافة اليونانية وسر الامتياز والتفوق الذي يخصهم به خلفاؤهم من الأوربيين المحدثين ، ولكنها الصلة بالشرق والاستفادة منه والتلمذة عليه ، ميزهم بها موقعهم الجغرافى فرجحهم على سكان المواقع النائية من اخوانهم الآريين .

وفى المرحلة الأولى قدم آباؤهم الأولون مـن القارة الآسيوية بعقائدهم الروحية كما أخذوها من منبعها ، ويكفى منها ذكر اسم الاله عندهم « ذيوس » وهـو مـن الهندية القديمة ، وذكر أبى الأرباب عندهم وهو اسم مركب من كلمتين بتلك اللغـة وهمـا : « داوس باتر » : أى أبى الأرباب (جوبيتير) .. وما بقى من تفصـيلات ديانتهم المنسية ومعبوداتهم الأخرى فهو مركب على اعتقادهم برئيس جميع المعبودات وأبى الأرباب .

والمرحلة التالية لمرحلة الهجرة القديمة هى مرحلة الكتابة والصناعة ، سواء جاءتهم من هجرة قدموس وزمرته الفينيقية ، أو من هجرة تماثلها فى مصـدرها ، فانها مـن ثمرات الموقع الجغرافى الذى قربهـم من أسـباب التلمذة على الشرق المجاور لهم والاستفادة من حركات شعوبه .

وتأتى المرحلة الثالثة بعد ميلاد السيد المسيح ، فلبس دخول اليونان فى المسيحية الا مرحلة فى السبيل المطروق من مراحل التلمذة على الثقافة الشرقية : أدبية أو صناعية أو روحية .

ولم تكن مرحلة المسيحية خاتمة المراحل فى هذه التلمذة العريقة فان الفتوح العثمانية أوشكت أن تفتتح فى بلاد اليونان وما جاورها عهد ديانة جديدة ، لولا اشتداد شيوخ الاسلام فى فتاواهم على الدين . الصريحة التى حرموا بها على السلاطين اكراه أهل الذمة

وهذا هو حكم الموقع الجغرافى الى جانب حكم التاريخ وحكم الآثار الباقية :

حكم الموقع الجغرافى أن اليونان تلاميذ « طبيعيون » لكل ثقافة شرقية ، كلما كانت للشرق ثقافة غالبة . فاذا وقف هذا المورد عند حد من الحدود أو وراء حاجز من الحواجز ، فذلك هو الحاجز الذى يصد السيل عن مجراه ويتحول به الى ينبوع سواه .

ثم الثقافة العبرية

ان سبق العرب للعبريين فى ثقافتهم الدينية أوضح من سبقهم لليونان فى ثقافة المعرفة وصناعات الحضارة • ووقائعه وقرائنه أقرب سندا من الوقائع والقرائن التى ألممنا بها فى الصفحات السابقة ، لأن السند القريب هنا مستمد من أسفار التوراة ومن أحوال المعيشة التى لا محل للخلاف عليها •

وقد أوجزنا القول فيما تقدم على العلاقات القديمة بين ثقافة العرب وثقافة اليونان بالقدر الذى تتسع له هذه الصفحات القليلة •

وسنجمل القول فيما يلى على بيان العلاقات القديمة بين ثقافة العرب وثقافة العبريين فى الناحية الدينية ، ونبدأ هذا البيان بما لابد منه من تحقيق أصل العبريين وأطوار العلاقة بينهم وبين الأمة العربية الى ما بعد ظهور الأنبياء

والرسل فى بنى اسرائيل • فمن هم العبريون ؟ وما هو أوثق الأقوال عن نشـأتهم الأولى قبل أيام ابراهيم عليـه السلام ؟

ان أوثق الأقوال عن نشأة العبريين منذ أربعين قرنا على وجه التقريب أنهم قبيلة بدوية صغيرة عاشت زمنا فى جنوب بلاد العـرب الى الشرق ، وبقيت فيه على حالة بين الاقامة والترحل الى مسـافات قريبـة حتى انتقلت ــ مع ملازمتها الشاطىء ــ الى جنوب وادى النهرين •

ويستدل على تاريخ هذه القبيلة من تاريخ الدابة التى كانت تعتمد عليهـا فى الرحـلة وحمـل الأثقـال ، وهى الحمار Asinus Asinv فهذا الحيوان كان يوجد فى حالة الوحشية على مقربة من السهول الرملية فى جزيرة العرب ، ويصـل أحيـانا فى قطعانه المجفلة من السباع الى أرض حوران •

ويظهر أن العبريين اسـتخدموا هـذا الحيوان وهو قريب من حالته الوحشية ، لأنه كان فى تلك الحالة يميل بلونه الى الاحمـــرار على اقتراب من ألوان الرمال التى

يعيش فيها • ومن هنا اسم « الحمار » واسم اليحمور الذى يطلق على الحمار الوحشى فى اللغة العربية •

ويظهر أيضا أنه بقى عندهم زمنا طويلا على هذا اللون حتى تغير لونه بعض الشيء وتولدت منه الحمر البيضاء ، بعد طول التدجين والعناية « المدنية » : أى بعد انتقال العبريين من البادية الى جوار المدن ، وترددهم بين معيشة البداوة ومعاهد الحضارة ، فأصبحت الحمر البيضاء مطية لذوى الرئاسة والثروة من القوم • وفى ذلك يقول سفر القضاة من اصحاحه الخامس مخاطبا أولئك الرؤساء : « قلبى نحو قضاة اسرائيل المنتدبين فى الشعب : « باركوا الرب أيها الراكبون الأتن الصحر الجالسون على الطنافس»: أى اناث الحمير المبيضة اللون •

واستخدام الحمار يدل على كثير من أحوال العبريين الى جوار القبائل التى تستخدم الجمال للسفر الى المسافات البعيدة ، ونقل الأحمال الثقيلة ، ونزول المراعى المنيعه التى لا تستباح لغير ذوى القوة والكثرة من قبائل الجزيرة•• فانما يستخدم الحمار للمسافات القصيرة والأحمال الخفيفة

بالقياس الى أحمال الجمال ، ويسير الحمار فى غير المفاوز الرملية التى تسلكهـا الابل ، ولا يبتعد وقتـاً طويلا عن موارد الماء الميسرة بغير عناء مجهد وبغير حاجة الى الحماية القوية أو الى كثرة العدد ووفرة السلاح •

فالعبريون في نشأتهم قوم ضعاف قليلون فى العدد ، مضطرون الى الاكتفاء بالمعيشة التى يتركها سادة الصحراء زهداً فيها واستغناء عنها ، ونكاد نعلم من ذلك مواقع نشأتهم الأولى قبـل وفودهم الى العراق وبعد مقامهـم فيه الى أيام الخليل ابراهيم •

فهذا الموقع لابد أن يكون قريبـاً الى الشاطىء قريباً الى الحاضرة ، يقيم فيه أناس لم يتفرغوا للبداوة فى جوف الصحراء ولم يتفرغوا للاقامة فى الحواضر العامرة ، ولكنهم عاشوا بين البادية والحاضرة يؤدون الأعمال التى تتطلبها الحاضرة من البـادية وتتطلبها البـادية من الحاضرة ، وهى فى الغالب أعمال وسـاطة وسمسرة هادئة لا تضطرهم الى الاقتحام والغلبة فى معاملة أهل المدينة ولا فى معاملة أهل الصـحراء ، ولا تضطرهم الى الحوزة القوية لتحصـيل

القوت لهم وللدواب التى يستخدمونها . فانهم يأخذون ما يحتاجون اليه من المدن جزاء أعمالهم فى الوساطة بينها وبين البادية ، ولا يحتاجون الى كثرة عدد ولا وفرة سلاح لاقتحام مراعى الصحراء البعيدة ، اذ كانت دوابهم تقنع بالقليل من العلف والمرعى وبالقريب من موارد الشرب والسقاية ، وهم فى وساطتهم المتبادلة يعولون على الرضى والطلب ولا يعولون على القهر والاغتصاب .

وفى هذه المعيشة البدوية الحضرية يكمن كل سر من أسرار التاريخ العبرى من فجر التاريخ الى العصر الحاضر ، واليها يرجع تعليل المشكلات والأزمات التى تعرض العبريون أو عرضوا لها أنفسهم ولا يزالون معرضين لها حتى هذه الأيام .

فهم قبيله لم تتطور ، وقد ظلت بين البادية والحاضرة قبيلة لم تستوف أطوار البادية ولم تتحول الى أطوار الحضارة شعباً « مدنياً » يتمشى مع الحياة المدنية على سنة جميع الشعوب ، ولازمتها عادة المعيشة على السمسرة والوساطة فلم تتقدم الى آخر الشوط فى تثمير أعمال البدو ولا فى

تميز أعمال الحضر ، فهى فى حالة العزلة الاجتماعية وما يلازمها عند البدو من عزلة « العصبية » بالدم والسلالة .

ومشكلة العبريين قديماً وحديثاً هى هذه المشكلة : هى مشكلة « التحجر » على حالة القبيلة وحالة « العصبية » بالدم والسلالة . وعقيدتهم فى جوهرها هى عقيدة عصبية منعزلة ، تؤمن باله تعبده لأنه الهها ، وهو الاله الذى يرعاها لأنها شعبه الذى يحابيه بين الشعوب لغير سبب ولغير فضيلة فيه غير أنه شعبه المختار لديه .

وهذه حالة من العزلة « المتعصبة » لابد أن تسوق القوم الى اصطدام عنيف بينهم وبين جيرانهم من جانب البادية ومن جانب الحاضرة ، ولابد أن يقع فيها ذلك الشعور النافر بين صاحب المال وبين الوسيط والسمسار ، كلما تحركت المطامع وتعسرت المنافع ، ونشبت المنازعات فى البيئة ، ولو كان نشوبها لسبب غير السمسرة والاستغلال .

ولا يدرى على التحقيق هل سمى العبريون بهذا الاسم لأنهم ينتسبون الى عابر بن سام ، أو لأنهم عبروا

نهر الفرات بعد قدومهـم الى وادى النهرين • ففى سفر يشوع يقول يشوع للشعب كله : « هكذا قال الرب اله اسرائيـل • آباؤكم سـكنوا فى عبر النهـر منذ الدهر • تارح أبو ابراهيم وأبو ناحور ، وعبدوا آلهة أخـرى ، فأخذت ابراهيم أباكم من عبر النهـر وسرت به فى كـل أرض كنعان » •

الا أنهم ـ لضعفهـم ـ كانوا يلوذون فى كل موطن سكنوه بمن هو أقوى منهم من القبائل التى تلتقى بهم فى أصولهم ويحتمون بمصـاهرتها من أعدائهم ، ففى سـفر التكوين أنهم انتسبوا الى الأصـــل الآرامى حين أرسل ابراهيم عليه السـلام رسـوله لخطبة رفقـة بنت بتوئيـل الآرامى • فقال له : « الى أرضى وعشيرتى تذهب وتأخذ زوجة لابنى •• » •

ولما نزلوا أرض كنعان جعلوا لغتهم لغة كنعانيـة • وقال أشـعيا وهو يتنبأ بغلبة قومه على أرض مصر انه « فى ذلك اليوم يـكون فى أرض مصر خمس مدن تتكلم بلغـة كنعان » •

ولم يزالوا فى هجرتهم من موطن بعد موطن بين العراق وحوران وكنعان يعيشون الى جوار القبائل ولا يتغلبون على واحدة منها فى وقعة فاصلة حتى لجأوا الى مصر وعادوا منها بعد عدة قرون الى الأرض التى سموها بأرض الميعاد ، ولم يتفقوا على حدودها حتى ملكوا أسباب القوة التى أطمعتهم فى الغلبة عليها •

والعرف الشائع بين العبريين أنهم يتشاءمون تشاؤماً « تقليدياً » بالأيام التى قضوها فى مصر ويحسبونها بلية البلايا ، ومحنة المحن فى تاريخهم كله من عهد الخليل الى عهد النازية الهتلرية فى القرن العشرين • وقد مرت بهم محنة السبى الى وادى النهرين ولكنهم لايتشاءمون بها كما تشاءموا بالمقام فى مصر ، ولا يجعلون الخروج من بابل عيداً باقياً متجدداً كعيد الخروج من أرض وادى النيل •

أما الواقع المعروف بنتائجه الكثيرة فهو على نقيض ما قدروه وأوجبوه على أنفسهم من تقاليد « الحداد » وتقاليد الأعياد •

فانهم لم يستفيدوا قط من هجرة فى تاريخهم كله

كما استفادوا من هذه الهجرة المصرية ، لأنهم نعموا بالعيش الرغيد فى جوار النيل ، وتعلموا من آداب الحياة وشرائط الصحة مازاد فى عددهم ، وزاد فى خبرتهم بتدبير أمورهم والدفاع عن أنفسهم • فأصبحوا يعدون بمئات الألوف ، ويحسنون حمل السلاح وتنظيم الزوع والحصاد ، ويصلحون لنزال القبائل البادية التى أعياهم أمرها قبل خمسة قرون وتركوا لها الأرض اعتصاماً بمصر وهم بضع مئات أو بضع عشرات •

وليس الفضل فى هذه الزيادة وهذا التقدم لطول الزمن بين دخولهم الى مصر وخروجهم منها ، فان القبائل التى تركوها فى البادية بقيت كما كانت قبل خمسة قرون، ولم تبلغ فى زيادتها ولا فى تقدمها بعض ما بلغوه وادعين قانعين بجوار النيل •

ولولا هذه الزيادة فى عددهم وفى خبرتهم لما استطاعوا أن يقاتلوا قبائل البادية التى كانوا يهابونها ويهربون منها ، ولا استطاعوا أن يهزموها ويطردوها من مواقعها اذا اجترأوا على قتالها ، ولا تأتى لهم من دواعى

الاستقرار فى أرض كنعان ما يعينهم على اقامة الملك وبناء الهياكل من الحجارة بدلا من العرائش والخيام ، ومهما يكن من بلاء أصابهم فى مصر فهو بلاء استحقوه واستحقوا أضعافه فى بلاد العالم القديم شرقية وغربية .

ثم لازمتهم آفتهم الخالدة بعد اقامة المملكة وتعاقب العروش زهاء أربعة قرون ، فلم يفارقوا نظام القبيلة بعد محاكاتهم لجيرانهم فى نظام الدولة ، ولبثوا فى دولتهم كما لبثوا فى هجرتهم قبيلة معزولة عن الأمم ، بل سبطا معزولا عن سبط فى داخل القبيلة ، وظلت لهم شريعة « العصبية القبلية » دستوراً يصلح لهم وحدهم فى تقديرهم ، ولكنه لا يصلح لتنظيم الدولة التى تجمعهم بغيرهم فى كل تقدير .

فلم يزالوا من قيام المملكة الى ما بعد ميلاد السيد المسيح يحرمون بينهم ما يحلونه بينهم وبين غيرهم ، ويعملون بما جاء فى سفر التثنية حيث يقال : « للأجنبى تقرض الربا ولكن لأخيك لا تقرض بربا لكى يباركك الرب الهك » .. فهو ربه والهه وليس برب ولا اله للآخرين .

وظلوا يحصرون العصبية فى أضيق حدودها بين الأسباط فى القبيلة الواحدة ويتشددون فى حصر كل سبط بميراثه الى أعقاب الأعقاب .

ففى الاصحاح السادس والثلاثين من سفر العدد أنه « لايتحول نصيب اسرائيل من سبط الى سبط . بل يلازم بنو اسرائيل كل سبط نصيب سبط آبائه ، وكل بنت ورثت نصيباً من أسباط بنى اسرائيل تكون امرأة لواحد من عشيرة سبط أبيها لكى يرث بنو اسرائيل كل سبط نصيب آبائه ، فلا يتحول نصيب من سبط الى سبط آخر ، بل يلازم كل واحد نصيبه كما أمر الرب موسى » .

***

ولا ضرورة للبحث الطويل فى نسبب الفشل الذى يلحق بدولة من الدول تقوم على مثل هذا النظام ، وتقوم من ورائه على مثل هذا الشعور ، فانه نظام يقف عند حدود القبيلة ويقصر عن التقدم وراء ذلك خطوة فى طريق الحياة القومية ، فضلا عن الحياة العالمية .

ومن فضول القول أن يتحدث نقاد التاريخ والمعقبون على أطوار الاجتماع عن « رسالة عالمية » يستفيدها العالم

من هذه « العصـــبية القبلية » بعد تطـور الأمم والشعوب وتطور العـلاقات العالمية وتطـور العقـائد والآداب . فان « الفكرة العالمية » لاتتولد في طور من أطـوارها من مثـل هذه الدعوة الدينيـة أو العنصرية ، بـل يـكون تقويض أسـاس هذه الدعوة شرطاً لازماً لمجـرد تصحيح النية وتوجيه الرغبـة الى الفكرة الانسـانية العامة والثقافة التي تستفاد لجميع الشـعوب ولا تكون وقفا على شعب واحـد دون سواه .

العبرية والعالمية

نعم انه لمن فضول القول أن يقال عن ثقافة دينية محصورة في هذا الحيز المحدود انها رسالة عالمية ، أو أنها يمكن أن تسفر قبل زوالها عن رسالة عالمية .

لكن الأمر يتجاوز فضول القول الى فقدان الحياء حين يقال : ان العبرية هي التي نهضت بأمانة الرسالة العالمية في تاريخ بني الانسان ، وأن تنعقد المقارنة بينها وبين حضارات الشرق في وادي النيل وفي وادي النهرين وفي شبه الجزيرة العربية . فيقال : ان تلك الحضارات جميعا لم تحفل بمبادىء الأخلاق ولم تقرر قواعد العدل والفضيلة ، وأن أربابها لاتغضب للواجب والحق كما غضب لهما رب العبريين : رب الصواعق والجنود .

ولا موجب ـ فيما نرى ـ لتفصيل الكلام على آداب الحضارات قبل ظهور العبريين وقبل شيوع تلك الحضارات

بين الشعوب والأقوام الذين تقدموا وراء آداب العصبية المحدودة أشواطا لا يتسع لها هذا المجال • فربما كان استقصاء المدى المعروف الذى بلغته الدعوة العبرية من أيام الخليل الى أيام السيد المسيح تصحيحا كافيا لتلك الدعوى التى يدعيها المبشرون بما يسمونه « الرسالة العالمية » من قبل العبريين •

ان طاعة الاله فى عرف العبريين ليست مسأله فضيلة وأخلاق تحمد من كل انسان فاضل وكل آدمى ذى خلق كريم ، بل هى مسألة علاقة بين رب « عبرى » يختص نفسه بشعب يختاره ويغار عليه ، وبين شعب يدين لذلك الاله بين آلهة الأمم لأنه يخافه ويشعر بقوته وانتقامه ، ويرى أنه أقدر على الانتقام من جميع الأرباب •

ويقول هذا الاله كما جاء فى سفر التثنية : « أنا عارف تمردكم ورقابكم الصلبة » •

ويقول كما جاء فى سفر الخروج : « رأيت هذا الشعب واذا هو شعب صلب الرقبة » •

ويقول أنبياؤهم تارة : انه شعب ثقيل الاثم ، وتارة : انه شعب لا يفهـم • ويعيد كل نبى ما سبقه اليه الأنبياء من وصفه بالضلالة والنفاق والقسوة وقلة الوفاء •• ولـكن هذا الشعب يعلم ـ مع كل ذلك ـ أن الله يختاره لأنه شعبه وعصـبته •• وأنه كمـا جاء فى سفر التثنية « ليس لأجل بركة يعطيك الرب الهك هذه الأرض الجيدة لتمتلكهـا لأنك شعب صلب الرقبة » •

أما هذا الشعب فانه يدين لهذا الاله ويختاره من بين الأرباب لأنه : « الهـكم وهو اله الآلهـة ورب الأرباب ، الاله العظيم الجبار المهيب » •

ويناديه الاله فيقول له كما جاء فى سفر الخروج : « لا تسجد لهن ولا تعبدهن لأنى أنا الرب الاهك اله غيور أفتقد ذنوب الآباء فى الأبنـاء ، فى الجيل الثـالث والرابع من مبغضى •• » •

نعم ؛ كما تسرى شريعة الثأر فى الجاهلية من الآباء الى الأبناء ، ومن الاخوة الى الاخوة ، ومن الجار الى الجار •

ويتكرر النذير من الاله الغضـوب غير مرة « لأن

الرب الاهك هو نار آكلة • اله غيور » •• فلا تسيروا وراء آلهة أخرى من آلهة الأمم التى حولكم لأن الرب الاهكم اله غيور » •• ويجرى هذا النذير من الأسفار المنسوبة الى موسى عليه السلام الى الأسفار التى كتبها آخر الأنبياء من بنى اسرائيل •

ولم تنفرج حلقات هذه العصبية بعد توالى الضربات على القوم من جراء تعنتهم بالأثرة وانكار الحقوق الانسانية على الأمم ، أو على « الجوييم » كما يسمونها بمعنى الغرباء أو الدخلاء ، بل كانت هذه العصبية تنحصر من دائرة الى دائرة أضيق منها وأشد فى التمييز والاستئثار من سوابقها • فكانت صفوتهم المختارة أبناء ابراهيم الى أبناء أبنائه وحفدته فاذا هى تنحصر بعد ذلك فى أبناء اسحق بنى اسرائيل ويدعو القوم أنفسهم من أجل ذلك بأبناء اسرائيل ، ثم انحصرت صفوتهم المختارة فى بنى هرون آل موسى الأقربين عليه السلام ، ثم انحصرت فى أبناء داود عليه السلام بعد قيام المملكة • وقيل من أجل ذلك ان المسيح المنتظر لا يكون من غير ذريته وورثة عرشه ، وكانت الوعود السماوية المزعومة تنتقل على هذا المثال جيلا بعد

جيل تبعاً للتنقل في مراكز الرئاسة والقدرة على مرضاة كهان الهيكل ودعاة النبوة •

وكان بعض أنبيائهم من حين الى حين يفطنون لوبال هذه العصبية ويعترفون للأمم بشيء من الحق في النعمة الالهية ، انذاراً لقومهم بعاقبة التمادى في مساوئهم ونزواتهم واتكالهم على اختيار الاله لهم دون سواهم بغير فضيلة فيهم ولا اجتهاد من جانبهم ، ولكنها فلتات تعرض لأولئك الأنبياء كلما أزعجهم مصير قومهم وصدمتهم فوارق المقابلة بينهم وبين الأمم التى تفضلهم وترجح عليهم ، ثم تذهب الصيحة بغير صدى وتعقبها نوبة من نوبات العصبية أشد وأعنف من نوباتها الغابرة ، وانتهت رسالات أنبيائهم وتلتها الدعوة المسيحية وهم على أشد ما كانوا تعصباً للدم والسلالة وانكاراً للحقوق الانسانية على كل من عداهم من «الجوييم» المنبوذين في اعتقادهم •

وقد استهل السيد المسيح رسالته بتوجيه الدعوة الى « خراف اسرائيل الضالة » وايثار « البنين » بالخبز على الغرباء ، فأعرضوا عنه ورفضوه ، وكادوا له المكايد

واتهموه ، فاتجه آخــر الأمر بالدعوة العامة الى المستمعين اليها من ســائر الأمم ، وضرب المثل بصاحب الدار الذي دعا الأقرباء وأبناء الأسرة الى وليمة عرسه فتعللوا له بالمعاذير وقاطعــوه فى داره ، فأرســــل غلمانه يدعون الى الموائد المهجورة كل عابر سبيل •

وظلوا الى عهد الرسـولين بطرس وبولس ينكرون على العبرى أن يتنــاول الطعام مع غير العبريين ويحتدمون غيظاً اذا قيل لهم ان دعوة الهداية تتجه الى الأمم كما تتجه الى بنى اسرائيــل ، فجاء فى الاصــحاح الحادى عشر من أعمال الرسل أنهم خاصموا بطرس يوم صعد الى أورشليم لأنه دخل بيوتاً لغير المختونين وأكل مع أهلها •

وجاء فى الاصــحاح الثـانى والعشرين من أعمال الرسل أن بولس الرسول كان يصلى فى الهيكل فقال لمن فيه ان الله أمره أن يذهب الى الأمم لأنه سيرسله الى الأمم بعيداً •• « فسمعوا له حتى هذه الكلمة ثم رفعوا أصواتهم قائلين : خــذ مثــل هذا من الأرض لأنه كان لايجوز أن يعيش ، واذ كانوا يصرخون ويطرحون ثيابهــم ويرمون

غباراً الى الجو أمر الأمير أن يذهب به الى المعسكر ، وأن يضرب ليعلم لأى سبب كانوا يصيحون به هذا الصياح ويشقون الثياب ويثيرون الغبار سخطا عليه •

***

والثقافة الدينية التى من هذا القبيل ليس من شأنها أن توحى الى أصحابها برسالة عالمية ، وانما شأنها عندهم كشأن حقوق الميراث فى أقرباء الدم والعصبية ، لاترى أحداً من أصحابها يدعو الناس الى مقاسمته فيها ، بل كل همه اذا استطاع أن يحتجزها لنفسه ويقصى الناس عنها ، وهذه شيمة نعهدها فى سلالة العبريين الى وقتنا هذا فلا نرى أحداً منهم يعنيه تبشير الناس بمذهبه وهداية « الأجنبيين » الى ملته ، كما يعنيه أن يتألب ويتعصب مع أبناء عصبته على تباعه الديار •

واذا تركنا جانب الثقافة الدينية والتفتنا الى جانب الثقافات الأدبية والفنية أو الثقافات الفلسفية والأخلاقية لم نجد عند القوم منذ كانوا نصيباً من هذه الثقافات يفيدون به العالم باختيارهم أو يفيده العالم على الرغم منهم •

فهم فى أدوار حياتهم الثلاثة ـ دور البداوة ودور المملكة ودور الشتات فى أنحاء البلاد ـ لم يصدروا من عندهم ثمرة نافعة من ثمرات الآداب والفنون أو ثمرات العلم والفلسفة ، فلم يخرجوا للعالم من أيام الخليل الى أيام المسيح عالماً ولا أديباً ولا فيلسوفاً ولا رحالة مشتغلا باستطلاع التواريخ أو بحاثة مشتغلا بدراسة الأحياء والنباتات ومسائل التاريخ الطبيعى كما عرفت من قبل وكما عرفت اليوم ، وكل محصولهم من الكتب المقروءة فانما هو تلك المواعظ والترانيم التى وقفوها على أنفسهم ، ولم ينبغ منهم مشتغل بالحكمة والدراسة العلمية قبل اتصالهم بأمم الحضارة واضطرارهم الى المعيشة بين تلك الأمم فى المشرق والمغرب .

ولما قامت لهم دولة لم تنهض لهم مع الدولة ثقافة أدبية .. ثم ذهبت الدولة ولم تعقب بعدها أثراً من آثار الفكر أو الوجدان أو الذوق والخيال كتلك الآثار التى حفظها التاريخ لكل دولة من الدول القديمة والحديثة .

أما فى دور الشتات بعد دور البداوة ودور الدولة

فلم يكن لهم مجتمع واحد تنسب اليه ثقافته ولا تنسب الى غيره ، ولكنهم ظلوا فى دور الشتات عالة على ثقافات الأمم كلما نبغ منهم نابغ بين أبنائها ، فليست لهم ثقافة مستقلة عن ثقافات العرب والمصريين فى العصر القديم ، ولا عن ثقافات الألمان والفرنسيين والانجليز والأمريكيين وسائر الأمم المثقفة فى العصر الحديث .

واذا أحصينا نوابغهم ونوابغ الأمم الأخرى وجب أن يكونوا أضعاف ذلك عددا وكفاية كما يكون المستفيدون من عشرين أو ثلاثين ثقافة منوعة بالقياس الى المستفيدين من ثقافة واحدة فى مكان واحد . ولكنهم على خلاف ذلك أقل مما ينبغى أن يكونوا بهذه النسبة وبنسبة أخرى غير النسبة العددية ، وهى أنهم يتعاونون بالتضامن ـ بل بالتعصب ـ فى جميع البلدان ، ويبذلون جهدهم للتنويه بنوابغهم والاعلان عنهم واهمال من عداهم من أقرانهم ونظرائهم ، ولا يخفى ما يعمله « التضامن » فى اظهار الخفى وتكبير الصغير وتفخيم الضئيل ، فان عشرة متضامنين متفاهمين على التعاون يملكون من أساليب الشهرة والتنويه مالا يملكه ألف متفرقون .

ولنا أن نقول بالتعبير الشائع فى عصرنا ان هؤلاء العبريين منذ بداوتهم الى هذا القرن العشرين قد كانوا مستنفدين ولم يكونوا قط منتجين ، وان محصولهم فى الثقافة العالمية محصول المستغل والوسيط ، وليس بمحصول المالك العامل الذى يعطى وينتج ما يعطيه •

الدين

فيما عدا احتكار النعمة الالهية وعزلة العصبية فى أضيق حدودها ـ لم يبدع العبريون شيئاً فى ثقافة الدين وأخذوا كل ما أخذوه من حولهم « مستنفدين » غير متصرفين فى عقيدة من عقائده الكبرى ، الا ما تصرفوا فيه بالخرافة والأحجية والطلسم والشعوذة والسحر على سذاجته الأولى بين القبائل البادية •

وكان أكثر ما أخذوه منقولا عن قبائل العربية الكبرى بين اليمن فى الجنوب وقبائل الآراميين والكنعانيين فى الشمال •

فلم يعرفوا كلمة « النبى » قبل اتصالهم بكنعان فى الزمن الذى ظهرت فيه النبوءات العربية ، مما ذكره القرآن الكريم ومما ذكروه هم عرضا فى أسفار العهد القديم •

وعرف العبريون نبوءات السحر والكهانة والتنجيم

كما عرفتها الشعوب البدائية » وابتكروا منها ما ابتكرت على سنة الشعوب كافة ، واقتبسوا منها ما اقتبست بعد اتصالهم بجيرانهما في المقام من أهل البادية أو أهل الحاضرة ، ولكنهم على خلاف الشائع بين المقلدين من كتاب الغربيين قد تعلموا النبوة الالهية بلفظها ومعناها من شعوب العرب ، ولم تكن لهذه الكلمة عند العبريين لفظة تؤديها قبل وفودهم على أرض كنعان ومجاورتهم للعرب المقيمين في أرض (مدين) .. فكانوا يسمون النبي بالرائي أو الناظر أو رجل الله ، ولم يطلقوا عليه اسم النبي الا بعد معرفتهم بأربعة من أنبياء العرب المذكورين في التوراة ، وهم ملكي صادق وأيوب وبلعام وشعيب الذي يسمونه يثرون معلم موسى الكليم ، ويرجح بعضهم أنه الخضر عليه السلام للمشابهة بين لفظ يثرون وخثرون وخضر في مخارج الحروف ، ولما ورد من أخبار الكليم مع الخضر عليهما السلام في تفسير القرآن الكريم .

ومن علماء الأديان الغربيين الذين ذهبوا الى اقتباس العبريين كلمة النبوة من العرب الأستاذ هولشر Holscher

والأستاذ شميدت Shmidt اللذان يرجحان أن الكلمة دخلت في اللغة العبرية بعد وفود القوم على فلسطين ، الا أن الأمر غنى عن الخبط فيه بالظنون مع المستشرقين ، من يفقه منهم اللغة العربية ومن لا يفقه منها غير الأشباح والخيالات . فان وفرة الكلمات التى لا تلتبس بمعنى النبوة فى اللغة العربية كالعرافة والكهانة والعيافة والزجر والرؤية ، تغنيها عن اتخاذ كلمة واحدة للرائى والنبى . وتاريخ النبوات العربية التى وردت فى التوراة سابق لاتخاذ العبريين كلمة النبى بدلا من كلمة الرائى والناظر . وتلمذة موسى لنبى مدين مذكورة فى التوراة قبل سائر النبوات الاسرائيلية ، وان موسى الكليم ولا ريب لهو رائد النبوة الكبرى بين بنى اسرائيل » .

« والمطلع على الكتب المأثورة بين بنى اسرائيل يتبين منها أنهم آمنوا بهذه النبوات جميعا ، وأنهم بعد ارتقائهم الى الايمان بالنبوة الالهية مازلوا يخلطون بين مطالب السحر والتنجيم ومطالب الهداية ويجعلون الاطلاع على المغيبات امتحانا لصدق النبى فى دعواه أصدق وألزم من كل امتحان ، ولم يرتفع كبار أنبيائهم ورسلهم عن

مطلب الاتجار بالكشف عن المغيبات والاشتغال بالتنجيم ففي أخبار صموائيل أنهم كانوا يقصدونه ليدلهم على مكان الماشية الضائعة وينقدونه أجره على ردها .. (خذ معك واحدا من الغلمان وقم اذهب فتش عن الأتن .. فقال شاول للغلام : فماذا نقدم للرجل ؟ لأن الخبز قد نفد من أوعيتنا وليس من هدية نقدمها لرجل الله . ماذا معنا ؟ فعاد الغلام يقول : هو ذا يوجد بيدى ربع شاقل فضة) ويؤخذ من النبوءات التى نسبوها الى النبى يعقوب جد بنى اسرائيل أنهم كانوا يعولون عليه فى صناعة التنجيم. فان النبوءات المقرونة بأسماء أبناء يعقوب تشير الى أبراج السماء وما ينسب اليها من طوالع ومن أمثلتها عن شمعون ولاوى أنهما أخوان سيوفهما آلات ظلم فى مجلسهما لا تدخل نفسى ، لأنهما فى غضبهما قتلا انسانا وفى رضائهما عرقبا ثورا .. وهذه اشارة الى برج التوأمين . وهو برج اله الحرب زجال عند البابليين . ويصورون أحد التوأمين وفى يده خنجر ويصورون أخاه وفى يده منجل ، وتشير عرقبة الثور الى برج الثور الذى يتعقبه التوأمان . ومن الأمثلة فى هذه النبوءات المنسوبة الى يعقوب مثل يهوذا

« جرو أسد جثا وربض كأسد ولبؤة ، لا يزول غضب من يهوذا ومشترع من بين رجليه حتى يأتى شيلون وله يكون خضوع شعوب .. وهذه اشارة الى برج الأسد ، وهو عند البابليين برجان يبدو أمام أحدهما برج يشير الى علامة الملك الذى تخضع له الملوك (١) » الى آخر ما شرحه الأستاذ أريك بروز Burrows فى كتابه عن تنجيمات يعقوب Oracles of Jacob .

***

وقد عبرت هذه الأطوار فى فهم النبوة شوطاً طويلا فى حياة القبائل العبرية ، وتتلمذوا فى كل مرحلة منها لأستاذ من هداة العرب نساكاً ورسلا مبعوثين بالرسالة أو أنبياء غير مبعوثين بها ، كما جاء فى كتب التوراة وكما جاء فى القرآن الكريم مما لم تذكره كتب الاسرائيليين ، وكله من شواهد التاريخ المعلوم عن سبق العرب الى فهم النبوة وارتقائهم فى الاستعداد لدرجاتها المنزهة عن شوائب الوثنية ، فضلا عما يفوتنا العلم به حتى اليوم من شواهد التاريخ المجهول .

---

(١) من كتاب حقائق الاسلام وأباطيل خصومه لمؤلف هذه الرسالة .

ابراهيم وموسى وداود يتعلمون

نحن نعلم أسماء بعض الأنبياء وأسماء الأمم التى بعثوا فيها ، ولكننا لا نعلمهم جميعاً ولاتحصيهم لنا كتب الأديان الثلاثة : التوراة والانجيل والقرآن • وفى ذلك يقول تعالى من سورة المؤمن : « ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك ... » •

ونعلم من سير الأنبياء فى التاريخ وفى الكتب الدينية أنهم يتعلمون من عباد الله الصالحين ، وفيهم من تنبأ وأرسل ومن لم يكن من الأنبياء أو المرسلين •

وفى سورة الكهف عن موسى عليه السلام وفتاه « فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علما * قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما

علمت رشدا * قال انك لن تستطيع معى صبرا وكيف تصبر على مالم تحط به خبرا » .

وبين أكبر الأنبياء المعلومين عندنا ثلاثة من الذين بعثوا فى العبريين وهم ابراهيم وموسى وداود عليهم السلام ، نعلم من أخبارهم فى أسفار التوراة كما نعلم من أقوالهم فيها أنهم تتلمذوا لأناس من الأمة العربية ، وأن أساتذتهم سبقوهم ـ بداهة ـ الى ثقافة الدين والى المعرفة الالهية التى يطلبها الأنبياء ويبحثون عنها .

وعلى أحد القولين يسمى ابراهيم عبرياً لأنه من نسل عابر بن سام .

وعلى القول الآخر يسمى عبرياً لأنه هو وقومه عبروا النهر الى أرض كنعان .

وعلى كلا القولين ينتمى ابراهيم الى قبيلة سامية من الجزيرة العربية ، ويتنقل بين أرض آرام فى المشرق وأرض كنعان فى المغرب ـ وكلتاهما موطن المتكلمين بالعربية على أقرب لهجاتها وأطوارها الى اللغة العربية

الحديثة ، فالعرب العاربة كما تقدم تنتمي كلها الى الأرمان ، وأبناء كنعان ينسبون الى أرضهم الواطنة على أشهر الأقوال • وهي من مادة « كنع » • تشبهها في لغتنا الحديثة مادة « قنع » ومادة « خنع » في الدلالة على الخفض والاطمئنان •

وقد تحول ابراهيم من أرض النهرين الى أرض كنعان فروى لنا سفر التكوين من التوراة في اصحاحه الرابع عشر أنه تلقى البركة من ملكي صادق ••• « وكان كاهناً لله العلي ، وباركه وقال : مبارك ابرام من الله العلي مالك السماوات والأرض ، ومبارك الله العلي الذي أسلم أعداءك في يدك » •

وقد أعطاه ابراهيم العشر من كل شيء قرباناً الى الله•

ويقول الانجيل في رسالة العبرانيين ان السيد المسيح صار « على رتبة ملكي صادق رئيس كهنة الى الأبد » •

ويقول بعد ذلك في الاصحاح السابع عن ملكي صادق : « انه لا بداءة أيام له ولا نهاية حياة ، بل هو مشبه

بابن الله . هذا يبقى كاهناً الى الأبد . ثم انظـروا ما أعظم هذا الذى أعطاه ابراهيم رئيس الآباء .. » .

فالتوراة والانجيل معاً يصفان الكاهن الكنعانى بصفة الرئاسة الدينية وصفة الخلود الذى لا يحده الزمان ، ويرفعانه الى المنزلة التى يتلقى منها ابراهيم بركة الاله العلى : اله السماوات والأرض . ولا يكون ذلك لانسان تعلم من ابراهيم ديناً لم يكن يعرفه ، وانما يكون لأستاذ متقدم فى العلم بدينه يتعلم منه ابراهيم .

وليس بين الأنبياء الذين دان لهم العبريون بعد ابراهيم من هو أكبر مقاماً من موسى عليهما السلام ، ومن الناس من يقدم موسى على من عداه من أنبيائهم بفضل الشريعة والقيادة الظافرة الى أرض الميعاد ، وأنهم على مكانته هذه ليثبتون عنه فى سفر الخروج أنه تعلم من نبى « مدين » العربى الذى يدعونه يثرون وجوآب ، ويدعوه العرب باسم شعيب .. ولا التباس فى أمر نسبته العربية بجميع الأسماء .

ففى الاصحاح الرابع من سفر الخروج أن موسى

عليه السلام استأذنه فى العودة الى مصر قبل رسالته :
« فمضى موسى ورجع يثرون حميه وقال له : أنا أذهب وأرجع الى اخوتى الذين فى مصر لأرى هل هم بعد أحياء . فقال يثرون لموسى : اذهب بسلام » .

وفى الاصحاح الثانى عشر بعد رواية أخبار موسى من ذهابه الى عودته : « أن يثرون أخذ محرقة وذبائح لله، وجاء هارون وجميع شيوخ اسرائيل ليأكلوا طعاماً مع حمى موسى أمام الله » .

ومعنى هذا أن شعيبا كان يقرب القرابين الى الله ويتبعه موسى وهارون وجميع شيوخ اسرائيل .

ثم يستطرد الكتاب قائلا : « وحدث فى الغد أن موسى جلس ليقضى للشعب فوقف الشعب عند موسى من الصباح الى المساء . فلما رأى حمو موسى كل ما هو صانع للشعب . قال : ما هذا الأمر الذى أنت صانع للشعب ؟ ما بالك جالسا وحدك وجميع الشعب واقف عندك من الصباح الى المساء ؟ فقال موسى لحميه : ان الشعب يأتى الى ليسأل الله اذا كان لهم دعوى يأتون الى ، فأقضى بين الرجل

وصاحبه وأعرفهم فرائض الله وشرائعه . فقال حمو موسى له : ليس جيدا هذا الأمر الذى أنت صانع . انك تكل أنت وهذا الشعب الذى معك جميعا . لأن الأمر أعظم منك ، لا تستطيع معك . الآن اسمع لصوتى فأنصحك ، فليكن الله معك . كن أنت للشعب أمام الله ، وقدم أنت الدعاوى الى الله ، وعلمهم الفرائض والشرائع ، وعرفهم الطريق الذى يسلكونه ، والعمل الذى يعملونه ، وأنت تنظر من جميع الشعب ذوى قدرة خائفين الله أمناء مبغضين الرشوة ، وتقيمهم عليهم رؤساء ألوف ورؤساء مئات ورؤساء خماسين ورؤساء عشرات ، فيقضون للشعب كل حين ، ويكون أن كل الدعاوى الكبيرة يجيئون بها اليك ، وكل الدعاوى الصغيرة يقضون هم فيها ، وخفف عن نفسك ، فهم يحملون معك ان فعلت هذا الأمر وأوصاك الله تستطيع القيام ، وكل هذا الشعب أيضا يأتى الى مكانه بسلام ، فسمع موسى لصوت حميه وفعل كل ما قال ، واختار موسى ذوى قدرة من جميع اسرائيل وجعلهم رؤساء على الشعب ، رؤساء ألوف ورؤساء مئات ورؤساء خماسين ورؤساء عشرات ، فكانوا يقضون للشعب كل حين .. »

ومعنى هذا أن شعيبا تقدم موسى الى عقيدته الالهية ، وعلمه تبليغ الشريعة وتنظيم القضاء فى قومه ، وأن العبريين كانوا متعلمين من النبى العربى ولم يكونوا معلمين .

***

ويأتى داود ، عند العبريين ، بعد ابراهيم وموسى فى مقام النبوة ، وهو رأس البيت المالك الموعود بالملك الأبدى فى هذا العالم ، ورب الأسرة التى ينتظرون الخلاص على يدى ملك من ملوكها يعود الى صهيون آخر الزمان . وقد كانت الصلة بينه وبين البلاد العربية متجددة متبادلة كما يفهم من قصة ابنه سليمان وصاحبة عرش سبأ فى جنوب بلاد العالم ، ولكننا لا نملك من الوثائق مانستند اليه فى تقدير آثار هذه الصلة من الناحية الدينية ، وانما نعلم من الوثائق التاريخية التى سجلها المؤرخون الأوربيون عن آثار اخناتون أن المشابهة قريبة جدا بين مزاميره وصلوات ذلك الملك الذى تقدم بالدعوة الى التوحيد فى مصر القديمة ...

« وقد عقد كلّ من هنرى برستيت وآرثور ويجال Weigall مقارنة بين بعض الصلات وبعض المزامير

فاتفقت المعـانى بينهما اتفـاقا لا ينسب الى توارد الخواطر والمصادفات ، ومن أمثلتها قول اخناتون :

« اذا ما هبطت فى أفق الغرب أظلمت الأرض كأنها ماتت فتخرج الأسود من عرائنها والثعابين من جحورها ».

ويقابله المزمور الرابع بعد المائة وفيه : « انك تجعل ظلمة فيصير ليل يدب فيه حيوان الوعر وتزمجر الأشبال لتخطف ولتلتمس من الله طعامها » .

ويمضى المزمور قائلا : « تشرق الشمس فتجتمع وفى مآويها تربض . والانسان يخرج الى عمله والى شغله فى المساء . ما أعظم أعمالك يارب . كلها بحكمة صنعت . والأرض ملآنة من غناك وهـذا البحر الـكبير الواسـع الأطراف ... وهناك دبابات بلا عدد صغار مع كبار . هناك تجرى السـفن ، ولوياثان ـ التمسـاح ـ خلقته ليـلعب فيه .. » .

« ومثله فى صلوات أخناتون : (ما أكثر خلائقك التى نجهلها أنت الاله الأحد الذى لا اله غيره . خلقت الأرض بمشيئتك وتفردت فعمرت الكون بالانسان والحيوان الكبار

والصغار .. تسير السفن مع التيار وفى وجهه وكل طريق يتفتح للسالك لأنك أشرقت في السماء ، ويرقص السمك في النهر أمامك وينفذ ضياؤك الى أغوار البحار ، وتضيء فتزول الظلمة .. وقد أيقظتهم فيغتسلون ويسمون ويرفعون أيديهم اليك ويمضى سكان العالم يعملون » .

وأيا كان مصدر هذه المزامير المتشابهة فالواقع المقرر أن اخناتون سبق داود بأكثر من ثلاثة قرون ، وأن العبريين لم ينشئوا هذا المذهب فى الصلوات الدينية قبل شعوب العالم فى جوارهم ، ولا فى غير ذلك الجوار .

***

على أن الجوار الملاصق لمساكن العبريين حيث تنقلوا بين أرض آرام وأرض كنعان لا يشير الى غير علاقة واحدة بينهم وبين جيرانهم ، وهى علاقة التابعين بالسابقين عليهم فى الثقافة الدينية على التخصيص وفى الثقافات الفكرية على الاجمال .

فمن قبل أيام موسى كان النبى العربى « أيوب » فى أرض تيماء يدين بالتوحيد وينكر عبادة الكواكب والأوثان

ويدعو الى المساواة بين الحر والعبد قائلا متسائلا : أليس صانعي في البطن صانعه وقد صورنا واحد في الرحم ؟

والشراح ومؤرخو العهد القديم متفقون على سبقه الى نزاهة التوحيد وتفضيل كتابه في هذا المعنى على كتب الأنبياء أصحاب الأسفار في العهد القديم • ومن هؤلاء الشراح اسرائيليون كالمستشرق مرجليوت الذى يقول في كتابه عن العلاقات بين العرب والاسرائيليين « ان أسلوب المتكلمين عن التوحيد في هذا السفر أنزه من أسلوب الأنبياء الاسرائيليين الذين كانوا يضطربون في بيئة وثنية ، خلافا للمتكلمين في سفر أيوب فان البديل من الوحدانية عندهم هو الالحاد والجحود » •

ويحقق بعض المؤرخين زمان أيوب عليه السلام بمراصد الفلك مما ذكره في أسماء النجوم والمنازل كالنعش والجبار والثريا ومخادع الجنوب وعين الثور وقلب العقرب ، فيرجحون على رأى أشهرهم هالس Hales أنه وجد قبل الميلاد بثلاثمائة وألفى سنة • وقد أدخله جامعو التوارة في العهد القديم لأنهم حسبوه تارة من كلام موسى وتارة من كلام سليمان ، وكان جامعو النسخة السريانية من التوارة

يضعون كتابه بعد كتب موسى وقبل كتاب يشوع ، ولكنه أقدم من ذلك ولو لم نأخذ بتقدير الفلكيين ... لأنه لم يذكر شيئا عن قصة الخروج من مصر وهى أهم القصص فى تاريخ العبريين ، فلا يسكت عنها من سمع بها فى برية بلاد العرب ، ولابد أن يسمع بها من أقام هناك بعد خروج العبريين من مصر ان كان زمان أيوب بعد زمان موسى عليهما السلام .

***

وفى أيام موسى عليه السلام كان العبريون يحتكمون الى نبى من العرب يقيم على نهر الفرات يسمونه بلعام ، ويظن بعضهم أنه مرادف لاسم لقمان . ويقول سفر العدد انه حكم للعبريين على الموآبيين وأيد نبوءات يعقوب .

وما لم يذكره العبريون فى كتبهم عن النبوءات فى بلاد العرب أكثر مما ذكروه ، فانما عناهم فى سجلاتهم أن يذكروا التزكية والتأييد ، ولايذهبوا مذهب الاستقصاء فى تسجيل جميع النبوءات التى سمعوا بها . وقد يكون هنالك ما لم يسمعوا به ولم يكن مما يرتضونه لو أنهم سمعوه .

فليس سكوتهم عن هود وصالح وذى الكفل الذين ذكرهم القرآن الكريم بحجة على خلو البلاد العربية من الأنبياء غير من ذكروه ، وما كانت قبائل عاد وثمود لتخلو من رسل الدين . وقد قام هؤلاء الرسل بالدعوة فى مدين وتيماء قبل الدعوة الموسوية ، وانما أعرض العبريون عن ذكرهم لأنهم جعلوا مصيرهم بعد قيام مملكتهم مرتهنا بمصير بيت المقدس وسكتوا قصدا عن « الجنوب » بعد أن كانت قبلتهم كلها اليه .

فهم قد درجوا من أرض الجنوب فى الجزيرة العربية، وظلوا بعد ذلك زهاء ألف سنة يلتفتون الى مواطنهم الأولى ويترقبون الحكمة منها .

فابراهيم توجه الى جيرار ، وموسى توجه الى مدين ، وكان أرميا يهتف في مراثيه سائلا : ألا حكمة بعد في تيمان ؟ هل بادت المشورة من الفهماء ؟ » .. وتيمان تقابل في لغتنا الحديثة كلمة يمن بجميع معانيها .

بل بقيت عادة التوجه الى الجنوب عند رسل القوم الى

ما بعد قيام المسيحية . فكان بولس الرسول يقول في كتاب غلاطية انه ذهب الى بلاد العرب قبل مسيره الى دمشق .

أما تركيز القداسة في أورشليم فهو شيء جديد طارىء بعد أيام موسى بزمن طويل ، فبقيت أورشليم في أيدي اليبوسيين بعد موسى بقرون عدة ، ولم يطردهم منها أبناء بنيامين بعد نزولهم بجوارها ، وبعد أيام داود جاء ملك من ذرية ابراهيم - يسمى يهواش - فهدم سورها وأخذ ودائع الذهب والفضة من خزائنها . وقال سفر الملوك عنه : انه مات فاضطجع مع آبائه ، أي مات مرضيا عنه في اصطلاحهم المألوف .

انما تحول القوم باتجاههم من الجنوب الى بيت المقدس بعد ارتباط الهيكل بمصير بيت داود ، وتعليق أملهم في الخلاص بعودة الملك الى ذلك البيت في آخر الزمان .

وأما قبل ذلك فقد كانوا يستقبلون الجنوب ويلوذون به ويتعلمون منه ، ولم يأخذ منهم الجنوب شيئا من ثقافته الدينية في أيام دولتهم ولا بعد أيامها . ولن تكون الدعوة

المحمدية التى ارتفعت من بلاد العرب فرعا من هذا الأصل الذى لم يتأصل قط فى الوحدانية • فان الدعوة الى عبادة رب العالمين دين لا يلتقى بدين العصبية المنعزلة فى طريق واحد ، وان نبوة الداعى الذى لا يعرف من النبوة غير الهداية لطراز من النبوة لايختلط بالتنجيم •

اللغة والكتابة

وفد العبريون من جنوب الجزيرة ـ على القول الراجح ـ الى وادى النهرين ، ثم هاجروا من جنوبه الى شماله ، وانحدروا ـ من ثم ـ الى أرض كنعان ، وكانت لهم لهجة من لهجات اللغة السامية الكبرى قريبة من سائر هذه اللهجات التى كان يجرى الخطاب بها بين قبائل آرام وكنعان ، ويسهل التفاهم بها فى جملتها مع اختلاف يسير كاختلاف المتكلمين فى القطر الواحد بين اقليم واقليم .

ومن الواضح أنهم كانوا يبتعدون عن مصدرهم الأول فى اللغة كلما ابتعدوا عن موطنهم القديم فى الجنوب ، فأصبحوا بعد هجرتهم الطويلة يتداولون من الأسماء والأعلام مالا يفهمون معناه ولا وجوه تصريفه ، وهو فى لغة « سبأ » من جنوب الجزيرة مفهوم المعنى والمصدر الذى تصرف منه بلفظه واشتقاقه ، ويقول مرجليوت فى كتابه

المتقدم ذكره عن العلاقة بين العرب وبنى اسرائيل : « ومن المحقق أن هذه الكلمات لم تأت من فلسطين الى سبأ ، ولعلها قد جاءت من سبأ إلى فلسطين » •

ولم تزل لهجة العبريين تنعزل عمن حولها كلما أمعنوا فى اعتزال الأمم بعبادتهم واعتقادهم التفرد بينها بنعمة الله ورجائه ، بل باعتقادهم أن « يهوا » انما يحقق لهم ذلك الرجاء بتدمير جيرانهم وتمكينهم من رقابهم ، فلا سبيل الى المشاركة باللغة مع هذا الحاجز القائم بين الفريقين ، وأصعب ما يكون التفاهم باللغة حين تستخدم هذه اللغة فى العبادة والشعائر المقدسة حين تكون العبادة والشعائر حكرا لمن يدينون بها ولا يقبلون من غيرهم أن يشاركهم فيها •

وقد تحجرت اللغة العبرية فى هذه العزلة واستطاعت مع هذا التحجر أن تعيش فى عصر المملكة وفى ابان الشوكة والسيادة برعاية الملوك والكهان ، ولكنها كانت تعيش فى الهيكل وتوابعه من « الكنيسات » التى يشرف

عليها الأحبار المتعلسون المزودون بالثقافة الدينية ، وكان أصحابها يتكلمون مع غيرهم خارج المعابد فيضطرون الى مخاطبتهم تارة باللهجات السامية الأخرى وتارة باليونانية العامية ، وقد يتعلمها بعضهم ويتعلم الكتابة بها على خلاف هوى المتعصبين من الهيكليين والغلاة .

وكانت هذه العبرية حين تحجرت ووقفت عن التطور لهجة ساذجة قليلة العدة ناقصة التصريف . ويقول فولتير في المعجم الفلسفي تحت كلمة آدم : « انه من المحقق أن اليهود كتبوا قليلا جدا وقرأوا قليلا جدا وكانوا على جهل شديد بعلوم الفلسفة والهندسة والجغرافية والطبيعيات فلم يعرفوا شيئا من تواريخ الأمم ولم يأخذوا فى التعلم الا بعد اتصالهم بالاسكندرية حيث شرعوا فى اقتباس المعرفة ، وكانت لغتهم البربرية مزيجا من الفينيقية القديمة والكلدانية المشوهة ، وبلغ من فقرها أنها لا تحتوى كثيرا من الأزمنة فى أفعالها » .

ومن المسلمات المفهومة بين العارفين بالعبرية والعارفين بتاريخها أنها أخذت من اللهجات السامية ولم تعطها شيئا

جديدا من فنون التطور فى قواعدها أو آدابها • فوقفت حيث بدأت وتركتها اللهجات السامية واقفة فى مكانها وهى تتطور وترقى الى الشأو الذى بلغته فى الأزمنة الحديثة ، ولم يكد عصر المملكة اليهودية أن ينقضى حتى كانت اللغة العبرية منقضية بين أهلها فى الخطاب وفى الكتابة ماخلا الصلوات والعبادات ، ثم انهزمت بين جدران المعابد وعلى ألسنة الأنبياء والكهان ، وخلفتها اللغة الآرامية فى معاملات الدين ومعاملات المعيشة اليومية ، ثم مضى العصر بعد العصر الى زماننا هذا فأصبح قراء التوراة بالعبرية أقل عددا من قرائها بأصغر اللغات •

ولا يعزى هذا الى مجرد سقوط الدولة اليهودية ولا الى نقص فى عدد العبريين الذين يدينون بكتبهم المقدسة • فان الدولة الآرامية فى وادى النهرين سقطت وسقطت بعدها دول الآراميين المتفرقين بين أنحاء البادية ولم تزل لغتهم الآرامية تنتشر وتتغلب على نظائرها من اللهجات السامية واللهجات الأجنبية التى تسربت الى مواطنها من سائر الأقطار • وانما يعزى سقوط العبرية الى عجزها عن « الانتاج » الذى ينفع الناس ، فلم يكن عندها ما تعطيه ولم

تكن وعاء صالحا يستودعه خدام الفكر والمعرفة ما يعطون .

***

أما الكتابة فهي من أبرز المسائل التي تمتحن بها قدرة العبريين في تاريخهم القديم على الانتاج والتصرف في شئون الفكر والثقافة ، وهي كذلك من أبرز المسائل التي تمتحن بها بواعثهم الفكرية التي تدعو الأمة المنتجة الى اختراع الوسيلة للافضاء بما عندها لسائر الأمم من رسالات الانسانية وأماناتها .

أقام العبريون في مصر عدة قرون وأقاموا في سيناء عدة سنين .

وفي مصر - كما هو معلوم - كانت نشأة الكتابة بالصور ، وفيها تطورت من الكتابة التصويرية الى الكتابة المقطعية ، ثم تطورت من الكتابة بالمقاطع الى الكتابة بالحروف التي يستقل كل حرف منها بصوت يدل عليه في كل كلمة مكتوبة .

ولقد كان ينبغي أن يسبق العبريون غيرهم من القبائل السامية الى اقتباس الكتابة على أنواعها ، سواء أكانت

بالصور أم بالمقاطع والحروف ، بل كان ينبغي أن نـكون ألواح الشريعة التي تلقوها في سيناء باعثا لهم على استكشاف الألواح المكتوبة في مناجمها بمـا عليهـا من الخطـوط والحروف •

ولكن الواقع الذي يسـجله تاريخ الـكتابة أنهم لم يبتدئوا قط عملا من أعمال اقتباس الكتابة ولا من أعمـال ترقيتها ونشرها ولا من أعمال التوفيق بينها وبين مخارج النطق في كلماتهم الملفوظة وانما كانوا في كل مرحلة من هذه المراحل مستنفدين يأخذون ممـا سبقهم ويتحجرون عليه ، حتى تقسرهم على تغييره ضرورات المعاملة فيسري التغيير قهرا ــ مع الزمن ــ الى كتابة الشعائر والعبادات •

فالـكلمات العبرية التي وجدت في رسـائل أمراء فلسطين الى فرعون مصر منذ القـرن الخامس عشر قبـل الميلاد كانت تـكتب بالحرف المسـماري كمـا حقق ذلك الأستاذ جمن Gimmun من أساتذة دار الفنون بليبزج(١)•

(١) كتاب الكنز في قواعد اللغة العبرية للدكتور محمد بدر • .

ثم وجدت حروف عبرية تشبه الحروف التى وجدت على ضريح ميشاع ملك موآب •

وظل العبريون يكتبون بهذا الحرف الى أيام سبى بابل ، فنقلوا الحروف المربعة عن الحروف البابلية ، وزادوا عليها حروف الحلق التى كانت شائعة على ألسنة الساميين بين بابل وكنعان ، وكلها من مصدر عربى كما لا يخفى ، لاختصاص النطق العربى بأكثر هذه الحروف •

وقد حفظ لنا المزمور التاسع عشر بعد المائة أسماء الحروف التى احتوتها الأبجدية العبرية على عهد المملكة ، لأنه جرى على طريقة التطريز فى ابتداء كل مقطوعة بحرف من الحروف الأبجدية وهى فى هذا المزمور على ترتيب (أبجد هوز حطى كلمن سعفص قرشت) •• اثنان وعشرون حرفا منها خمسة يتغير نطقها باغفالها من الاعجام أو ينقلها من اليمين الى اليسار وهى الجيم والواو والكاف والشين •

ومن آثار الاقتباس من النطق العربى أن حرف الغين لم يكن موجودا بين حروف المزمور ، فلما وجد بعد

اختلاطهم بمن ينطقون العربيــة أضافوه وسموه غيمل أى على وزن جيمل • ويلاحظ أن (جيمل) بمعنى جمــل عندهم •• أما غيمل فلا معنى لها غير المحاكاة اللفظيــة ، وانما قاسوها الى أقرب المخارج فكتبوها كما تكتب الجيم وحذفوا نقطة الاعجام للتمييز بينهما •

ولم يكن فى نطقهم تمييز واضح بين الخاء والكاف ، فلما كثر التمييز بينهما على أســـماعهم أيام تعلموا الكتابة جعلوا للخاء حرفا سموه الخاف على وزن الكاف ، وكتبوه كما تكتب الكاف بعد حذف نقطة الاعجام •

ولما اتصــلوا بأعاجم الشــمال الذين ينطقون الواو « فاء » كما يقول بعض الطورانيين « فلاالضالين » بدلاً من « ولاالضالين » ـ نطقوها مثلهم وجعلوا لها حرفا كالواو فى رسمه بعد حذف نقطة الاعجام •

كذلك أخذوا السين الآرامية المسماة بالآرامية سمخ حين كتبوا بهذه اللغــة ، لورودها فى كلمــات كثيرة من أسفار التوراة ، وهذا مع احتفاظهم بالسين ،) لاختلاف

النطق قليلا بين اللهجتين فى أحرف الذلق وأحرف الصفير •

وليس فى العبرية ثاء ولا ذال ولا ضاد ولا ظاء ولكنهم يقربون حروفهم منها بالتفخيم أو يكتفون بما يشابهها من حروفهم فيحدث الالتباس أحيانا فى نقلها الى العربية • ويشتبه الأمر فى البحث عن مصدر الكلمة من جراء هذا الالتباس ، كما يحدث فى كلمة الناصرة هل هى من النصر أو من النذر أو من النظر •• ؟ وكلها مميزة المعانى والمخارج فى العربية ملتبسة كما نرى فى العبرية ، ويزيد الالتباس أن البلدة كانت قريبة من موقع نصر وكانت مسكنا للكثيرين من المنذورين للعبادة ، وكانت مرقبا يسهل النظر منه الى ما حواليه •

وقد نقحت الكتابة العبرية مرة أخرى حوالى عصر الميلاد على هدى الكتابة الآرامية ، فلم تنجع الحيل فى احياء هذه اللغة التى قضى عليها بالموت لعزلتها وفراغها من مادة البقاء التى تكفل الحياة للغات بما تؤديه للعالم من رسالة انسانية أو عقيدة عامة ، ثم هدم الرومان هيكل بيت المقدس

فتفرق الكهان فى الأرض واتخذوا اليونانية لغة لهم فى مصر وأوربة واعتمدوا على ترجمة التوراة اليها أو الى الآرامية للذين تخلفوا عن الهجرة فى بلادهم ، وقد شاعت يومئذ تسمية الآرامية بالسريانية للتفرقة بين المتكلمين بها من المسيحيين ، والمتكلمين بها من أبنائها الذين لم يدخلوا فى المسيحية ، ثم اندمجت السريانية المتطورة بعد ذلك فى العربية القرشية على أثر ظهور الاسلام .

***

ولما كان القرن العاشر للميلاد أيقن أحبار اسرائيل ورؤساهم بضياع العبرية وقلة صلاحها للبقاء بالتعليم والتلقين فى نطاق المعابد المحدودة ، فانها لم تكن صالحة على حالتها فى ذلك العهد للتعليم لخلوها من القواعد والأصول التى تحفظ اللغة من جيل الى جيل .. فرجع الأحبار الى النحو العربى يقيسون عليه ويستعيرون منه : وكتبوا «أجروميتهم» الأولى باللغة العربية مقرونة فى بعض الأحيان بالترجمة العبرية وكان أول من اجتهد منهم فى تحرير كلماتها وجمعها سعيد بن يوسف الفيومى ــ أو سعديا ــ صاحب معجم الأجارون وكتاب الفصاحة (٨٩٢ م) .

وتلاه الربانى ابن تميم البابلى ، والربانى يهودا بن قريش والربانى مناحم بن سروت الأندلسى ، والربانى سكوم ابن جبيرول وغيرهم وغيرهم من تلاميذ العرب فى المغرب ومصر والعراق .

***

وتتلمذ القوم على العرب فى علم الكلام الاسرائيلى أو فلسفة اللاهوت ، فكان كل من فيلسوفهم ابن جبيرول (١٠٢١ - ١٠٥٨) الملقب بافلاطون اليهود وابن عزرا الغرناطى (١٠٧٠ - ١١٣٨) صاحب الغزل الصوفى وابن ميمون أرسطو اليهود (١١٣٥ - ١٢٠٤) تلاميذ للمدرسة الرشدية بالأندلس . وكان ابن ميمون يرى كما قال : ان وصايا الناصرى ورجل اسماعيل يعنى محمدا عليه السلام تهدى الانسان الى الكمال . ولهذا ثار عليه المتعصبون من قومه وسموا كتابه دلالة الحائرين بضلالة الحائرين . وأول هؤلاء - ابن جبيرول - وضع منظومة فى النحو العبرى على مثال النحو العربى فيما عدا قواعد الاعراب ، لأن الكلمات العبرية اما ساكنة أو مبنية ، لا تجرى فى تحريك أو اخرها على قواعد الآرامية ولا على قواعد العربية الحديثة .

وأهم كتبه فى اللاهوت « ينبوع الحيـاة » منظور فيه الى التصوف الاسلامى فى كثير من التفصيلات •

***

ولم ينبغ بين اليهود من الفلاسفة العالميين من هو أشهر من باروخ سنبوزا (١٦٣٢ ـ ١٦٧٧) الذى نشأت أسرته فى البلاد الألمانية ، وتوفر فى صباه على دراسة كل من ابن ميمون وابن عزرا ، ثم خلفه المشتغلون بالفلسفة من اليهود بعد ظهور الفلاسفة الكبار من الألمان ، فكان القوم كعادتهم مستفيدين فى هذا الفرع الواسع من فروع الثقافة الانسانية كشأنهم فى كل ثقافة تلقوها بين الأقدمين والمحدثين •

وكانوا حيثما اشتركوا مع العرب فى ناحية من نواحى المعرفة والعقيدة تابعين مسبوقين ولم يكونوا قط سابقين لهم أو مرشدين •

الشعر

اذا كان فى نشأة الشعر العربى من الحداء بعض الشك ، فليس هنالك أقل شك فى الصلة الوثيقة بين الحداء والشعر فى تطور تركيبه وتوفيق أوزانه وتقسيم أعاريضه. لأن أوزان الشعر التى نظم فيها شعراء الجاهلية تنتظم فيها الأعاريض جميعا مع حركة من حركات الابل فى السرعة والأناة . فلا خفاء بهذه الحركة السريعة فى هذا البيت :

أنا النبى لا كذب   أنا ابن عبد المطلب

ولا خفاء بالحركة المتمهلة فى هذا البيت :

ما للجمال مشيها وئيدا   أجندلا يحملن أم حديدا

ولا خفاء بحركة الابل على اختلافها وما يناسبها من أوزان الحداء فى كل بيت ينتظم من أمثال هذه التفاعيل .

والحداء نفسه مناسبة شعرية تستوحى الغناء فى ليالى

البادية القمراء ، بين الحنين الى الموطن الذى بارحه الركب، والأمل فى المنتجع الذى يتنقل اليه ، وليس لترديد الغناء ـ بمعانيه الشعرية مجال أقرب الى الحياة البدوية وألصق بها من مجال الحداء •

فلا نزاع فى الصلة الوثيقة بين الحداء ووزن الشعر العربى ، فان لم يكن كل ما نظمه العرب حداء يتغنى به الحداة فعلا فهو وزن لا يخالفه ولا ينفصل عن نغماته وأعاريضه •

والمرجح الى جانب هذا أن حداء الابل كان له عمله المحسوس فى التزام القافية ، سواء بدأت القافية فى سجع الكهان كما يرى الكثيرون ، أو كان ابتداؤها فى غناء الحداة •

فالمشاهد من أشعار الأمم فى لغات متعددة أن القافية تلتزم فى الشعر المنفرد ، أى الشعر الذى يتغنى به ناظمه وراويه ، ويصغى اليه المستمعون دون أن يشتركوا فى الغناء ، ويلاحظ هذا فى أغانى المنشدين الحماسيين أو

المتغزلين التي يسـمونها Ballads (بللاد) في بعض اللغات الأوروبية ، كما يلاحظ في الموشحة Sonnet التي يتغنى بها العاشق لمعشوقته في البـلاد اللاتينية حيث كان منشؤها الأول ، وقيل انهم اسـتعاروها من الموشـحة العربية .

وتهمل القافية غالبا في أناشيد الجماعات سواء كانت مسرحية أو دينية كما يرى في أناشيد اليونان والعبريين ، وسر ذلك ظاهر لمن يريد أن يختبره في حالة الاصغاء ، أو حالة الاشتراك في الغناء .

فان السامع المصغى الى ترتيل غيره يحتاج الى تنبيه السمع وانتظار مواضـع الوقوف والترديد ، فيعرفهـا من القافية المتتابعة في مواضعها .

أما المنشد المشترك في الغناء فهو يعلم مواضع الايقاع ومواضع الابتداء والانتهاء ، فيغنيه الاشـتراك في الايقاع عن انتظار مواضع الوقوف ، وعن تنبيه غيره له بالقافية الى تلك المواضـع ، وقد نتبين هذا الفارق فيما ننشده بأنفسنا ولو كان من الكلام المنثور ، فاننا نتبع الوزن في هذه الحالة

ولا يعنينا أن نترقب القافيـة ، بل لا يعنينا أن نترقب شـيئا غير الاسترسال فى النغم الى نهاية الكلام كيفما كان منتهاه مقفى أو بغير قافيـة ، شأنه فى ذلك شأن اللحن الموسيقى الذى خلا من الكلمات ، فلا يلتفت فيه الى غير امتداد النغمة حسب أوزان الأيقاع .

وكثيرا ما خطر لنقاد الغرب أن هذه القوافى والبحور فى وزن الشعر خاصة من خواص الأمزجة السامية خالف السـاميون بها الأوربيين لمخالفتهم اياهم فى تكوين الفطرة وخصائص العناصر البشرية .

لكنهم فهموا بعد تواتر البحث فى أشـعار اللغات السامية أن القافية غير ملتزمة فى جميع تلك اللغات ، وأن كثيرا من الشـعر المنظوم فيها خال من البحور والأعاريض ذات التفعيلات المتكررة ، كأنه فواصـل النثر التى تنقسم الى جمل متقاربة ولا تنقسم الى شطور متساوية فى حركات الأسباب والأوتاد على اصطلاح العروضيين .

فـلابد اذن مـن البحث عن سبب غـير الأمزجـة العنصرية ، ولابد أن يكون اختلاف الانشاد هو سبب هذا

الاختلاف بين العرب وسائر الشعوب السامية . فان شعوب وادى النهرين ألفت أناشيد الكهان فى الهياكل فترخصت فى القافيـة كما ترخصت فيها الشـعوب الآرية التى يتغنى فيهـا الناس مجتمعين ، وقد ألف العبريون العبادة معا منذ كانوا قبيلة واحـدة تنتقل بحذافيرها ، وتبتهـل بحذافيرها الى معبودها فى حظيرة واحدة . ولم تألف قبائـل البـادية العربية نوعا من أنواع الأناشيد المجتمعة ، فغلبت على شعرها أوزان القصيد المفرد وقوافيه .

ويرى بعض علمـاء اللغـات السامية أن الكلمة التى تفيد معنى الشـعر فيها واحدة مأخوذة من أصـلها العربى مع قليل من التحريف طرأ عليها بعد انتشار الساميين فى وادى النهـرين وبادية الشـام وأرض كنعان . ويقول العالم القس الأب مرمر مجى فى كتابه المعجميات : « ان لفظة الشـعر كانت تدل قديما على الغناء وان لم ترد بهذا المفهوم فى المعاجم التى بين أيدينـا . ويمكن الاسـتدلال على ذلك بوسيلة المقارنة الألسنية السامية . اذ أننا نجده فى أقدم اللغات السامية من حيث الآثار المكتوبة ، أى اللغة الأكدية كلمة (شيرو) الدالة على هتـاف الكهـان فى

الهياكل ، ومن الأكدية انتقلت اللفظة الى العبرية بصورة (شير ، وشيره) ومعناها النشيد ، ومنها صيغ الفعل المرتجل (شير) بمعنى أنشد وغنى ، ثم الى الآرامية بصورة (شور) بمعنى أنشد ، رنم ، غنى • ومن ذلك جاء اسم سفر من أسفار العهد القديم وهو (شير هشيريم) أى نشيد الأناشيد ، وقد ورد الفعل العبرى (شير) فى أقدم أثر للغة العبرية وهو نشيد النبية دبورت ، يليه مرادفه (زامر) وكلاهما بصيغة الحاضر (اشيره) أى أنشد وأزمر • والجدير بالملاحظة كما أشار الى ذلك Langdon لانجدون أن العبارة الأكدية (زامار شيرى) تطابق كل المطابقة العبارة العبرية (مزمور شير) ومفرداهما فى العبرية (مزمور ، نشيد ، أو شعر) •• هذا ومعلوم أن أغلب الأحرف الحلقية ، ومنها العين ، قد سقطت فى الأكدية ، أو أنها كانت تلفظ دون أن تمثلها علامة فى الكتابة ، لأن الرسم المسمارى المستعار للأكدية السامية من الشمرية غير السامية ـ كان خاليا من العلامات للحلقيات ، لخلو الشمرية منها ، ولهذا جاز لنا افتراض أن كلمة (شيرو) كان أصلها أو لفظها (شعرو) الا أنها وجت العبرية

والآرامية وهى خلو من العين كما كانت مصورة فى الرسم المسمارى . أما العربية فقد ظهرت أو بقيت فيها العين الأصلية .. على أن العربية والعبرية قد احتفظتا بالكسرة المحركة بها الشين فى الأكدية (شيرو) فجاء فى العبرية (شير) وفى العربية (شعر) والكلمة (شيرو) مشتقة حسب معناها فى الأكدية والعبرية أى معنى الهتاف ثم الغناء .. » .

***

ولا غرابة فى أن تكون كلمة (الشعر) فى لغة الجزيرة سابقة لمرادفاتها فى وادى النهرين وأرض كنعان ، لأن الجزيرة كانت مصدر الهجرات المتوالية الى تلك المواطن كما تواتر فى أشهر الأقوال .

على أن المعلوم لنا الآن من أطوار الشعر فى اللغات السامية أنه تحول فى الآرامية والعبرية من الفقرات المسجوعة على نحو أسجاع الكهان الى السطور المتوازية على نسق قابل للترنم والانشاد ، ثم توقف به التطور عند هذه المحاولة لارتباطه بالشعائر الدينية . وهذا بينما تطور

النظم فى بلاد الجزيرة العربيـة حتى أصبح (فنا) مميزا بأوزانه وأقسامه التي تعرف بأسـماثها دون أن تنسب الى ناظم معلوم ، على حين أن القصائد العبرية لاتعرف باسم فني يدل عليها ، وانما تعرف بأنهـا قصيدة كالتى نظمها هذا الشاعر أو ذاك من شعرائهم المشهورين ، وتميز بعلامات خاصة ولا تميز على قاعدة عامة تغنى عن الاشارة الى ناظميها .

وبعض اللهجات السـامية توقفت عند السطور المتوازية ، ولم تتطور بها الى تقسيم الأوزان والتفاعيل الواضحة . فكان كثير من شعرها يخلو من التفاعيل والقوافي اعتمادا على مضاهاة السطر بالسطر والترنيم بالترنيم .

يقول الأستاذ جلبرت مورى فى بحثه عن الأوزان والأعاريض : « ان احـدى نتـائج هذا الاختلاف زيادة الاعتماد على القافية فى اللغات الحديثة . ففى اللغتين اليونانية واللاتينية ينظمون بغير قافيـة لأن الأوزان فيهما واضحة ، وانما تدعو الحاجة الى القافية لتقرير نهاية السطر وتزويد الأذن بعلامة ثابتة للوقوف ، وبغير هذه العلامة تثقل الأوزان

وتغمض ، ولا تستبين للسامع مواضع الانتقال والانفصال ، بل لا يستبين له هل هو مستمع لكلام منظوم أو كلام منثور ، وقد اختلف الطابعون هذا الاختلاف في بعض المناظر المرسلة من كلام شكسبير ، فحسبها بعضهم من المنثور وحسبها الآخرون من المنظوم • ومما يلاحظ أن اللاتين اعتمدوا على القافية حين فقدوا الانتباه الى النسبة العددية •• وأن الصينيين يحرصون على القافية لأنهم لا يلتزمون الأوزان • وأن انتشار القافية فى أغانى الريف الانجليزية يقترن بالترخص فى التزام الأعاريض » •

ويستطرد العلامة الناقد الأديب الى الشعر الفرنسى فيقول : « ان اللغة الفرنسية حين رجع فيها الوزن الى مجرد احصاء المقاطع وأصبحت المقاطع بين مطولة وصامتة •• نشأت فيها من أجل ذلك حاجة ماسة الى القافية فصارت فى شعرها ضرورة لا محيص عنها ، ودعا الأمر الى تقطيع البيت أجزاء صغيرة ليفهم معناه » •

ومن أسباب الاكتفاء بالوزن دون القافية فى أشعار الغربيين ذلك السبب الذى ذكرناه آنفا ولم يذكره العلامة

جلبرت مورى : وهو غنـاء الجماعة للشعر المحفوظ الذى يحفظه المغنـون جميعا بفواصـله ولوازمه ومواضـع النبر والترديد فى كلمـاته وفقراته • فانهـم فى هذه الحالة ينساقون مع الايقاع بغير حاجـة الى القوافى عند نهـاية السطور ، ولهذا نرى أن شعراء هذه اللغات بعينها يلتزمون القافية فى أناشيد الأفراد ويكثرون من القافية فى المقطوعات التى يرتلها المنشدون المعروفون باسم الـ Bards أو اسم (Minstrals) وكلهم يرتلون أو يترنمون بما ينشدون ••

فلا شعر فى لغة من اللغات بغير ايقاع ، وقد يجتمع كله من وزن وقافيـة وترتيل فى القصيدة الواحـدة ، ولـكنه اجتماع نادر فى لغات العالم ميسور فى لغة واحدة على أكمل الوجوه لامتيازها بالخصائص الشعرية الوافرة فى ألفاظها وتراكيبها وهى اللغة العربية •.

فالكلمات نفسها موزونة فى اللغة العربية ، والمشتقات كلهـا تجرى على صـيغ محدودة بالأوزان المرسومة كأنها قوالب البناء المعدة لكل تركيب ، وأفعال اللغة مقسومة الى أوزان مميزة فى الماضى والمضارع والأمر ، وفى الأسماء والصـفات التى تشـتق منها على حسب تلك الأوزان ،

ولا نظير لهذا التركيب الموسيقى فى لغة من اللغات الهندية الجرمانية ولا فى كثير من اللغات السامية • فالذى يميز اسم الفاعل وزن متفق عليه فى الأفعال الثلاثية والأفعال الرباعية أو الخماسية ، ولكنه فى اللغات الأوربية يأتى باضافة حروف لا يعرف لها وزن مقرر قبل الاضافة ولا بعدها •

ويجب ألا نتعجل فنحسب أن هذا الفرق فى الخصائص الموسيقية يرجع الى الاختلاف بين الأمم الآرية والأمم السامية كما توهم بعض المستشرقين وبعض المتعجلين من كتابنا الشرقيين •

فاللغة العبرانية كما أسلفنا لغة سامية فى أصولها ولكنها على ما رأينا خالية من الوزن والقافية ، وتستعيض منهما بالأسطر المتوازية والكلمات المترددة بين السطر الأول وما يليه • وقد كان العبريون يجهلون فنون العروض عندهم حتى انكشفت للباحثين اللاهوتيين بعد ترجمة التوراة والانجيل واطلاع علماء اللاهوت على أصول اللغات التى كتبت بها أسفار العهدين القديم والحديث ، فانكشف للأسقف لوث Lowth فى القرن الثانى عشر أن أشعار

الكتابين لا تجرى على وزن محدود وأن قوام الشعر عند العبرانيين سطر يرددونه لأغراض ستة ، وهى : المجاز والاستطراد والتفسير والمبالغة والمقابلة والمقارنة .

ومن أمثلة الترديد لمقابلة المعنى الحقيقى بالمعنى المجازى قول المزامير : (من السيف أنقذ نفسى ، ومن يد الكلب أنقذ وحيدتى) .

ومن أمثلة الترديد للاستطراد قول أيوب : (هناك يكف المنافقون عن الفتنة ، وهناك يكف المتعبون فيستريحون) .

ومن أمثلة الترديد للتفسير قول المزامير : (من هو الانسان الخائف من ربه ؟ هو الانسان الذى يهديه الرب الى طريق يرتضيه) .

وهكذا سائر الأمثلة فى الأسطر المتوازية وان زادت على سطرين ، وقد تزيد بعدد الحروف الأبجدية على طريقة التطريز فى اللغة العربية كما يلاحظ فى وزن المزمور التاسع عشر بعد المائة فانه يتألف من اثنين وعشرين

حرفاً ـ عدد أحرف الأبجدية ـ كل حرف منها يقترن بسطر من المزمور .

وعلى هذه القاعدة بنى النظم في العبارات الموقعة التي ترددت في العهد الجديد ، وقد أتينا بأمثلة منها في كتابنا (عبقرية المسيح) نكتفي منها بهذا المثل من وصايا السيد المسيح :

« اسألوا تعطوا .

« اطلبوا تجدوا .

« اقرعوا يفتح لكم .

« لأن من يسأل يأخذ ، ومن يطلب يجد ، ومن يقرع يفتح له الباب .

« من منكم يسأله ابنه خبزاً فيعطيه حجراً ؟

« ومن منكم يسأله سمكة فيعطيه حية ؟

« أو يسأله بيضة فيعطيه عقرباً ؟

« فاذا كنتم وأنتم أشرار تحسنون العطاء للأبناء فكيف بالأب الذي في السماء ؟ »

فالخواص الشعرية التى امتازت بها لغتنا العربية ليست من خواص اللغات السامية ، وليس لها نظير فى العبرية ولا فى الكلدانية ولا فى معظم اللهجات التى تفرعت على أصول الكلام عند الساميين ، ولكنها خواص ممتازة تنفرد بها هذه اللغة لأسباب كثيرة لا داعية لاحصائها فى هذا المقام ، ولا نحب أن نعرض منها للأمور التى يطول فيها الجدل وتضطرب فيها منازع الآراء والأهواء . اذ كان امتياز الحروف العربية بالدلالة على الحساسية الموسيقية حقيقة ملموسة لا محل فيها للمحال ، فالأذن العربية تميز بين الظاء والضاد ، وبين الذال والدال ، وبين الحاء والخاء والهاء ، وبين الصاد والسين والشين ، وبين الجيم والغين والعين ، وبين القاف والكاف والخاء ، وقلما يميز الناطقون باللغات الأخرى بين هذه الحروف ، واذا وجدت فى تلك اللغات حروف لا تنطق بالعربية كالفاء والباء الثقيلتين فهما فى الواقع حرف يصدر من مخرج واحد بين التخفيف والتثقيل ، وليست ذات قيمة موسيقية مستقلة كالحروف التى ذكرناها فى اللغة العربية .

ومن العلامات الموسيقية المركبة فى بنية الكلمة أننا

نميز بين الحركة وحرف العلة على خلاف اللغات غير السامية ، فعندنا الواو والضمة وعندنا الياء والكسرة ، وعندنا الألف والفتحة ، وعندنا السكون وما يشبهه من التنوين .. وأدل من ذلك على الموسيقية الطبيعية بناء المشتقات على الأوزان واختلاف معنى الكلمة باختلاف الصيغة التى تبنى عليها .

ويماثل هذا من الدلائل البدائية التى تحسب من حروف الأبجدية فى علم الموسيقى أن الغربيين يسقطون (الكوما) من الأصوات المحسوسة ، وأن الموسيقى الشرقية تحسب الصوت الذى يسمع من ربع (الكوما) وهو همزة تأتى من نصف مليمتر فى الوتر الذى يبلغ طوله متراً كاملا ، وتسمى لهذا فى اصطلاحهم بالذرة الموسيقية .

***

ونستخلص مما تقدم أن فن الصياغة الشعرية سلك فى تطوره ثلاثة مسالك متفاوتة فى أمم شرقية وغربية لا تنتمى الى سلالة واحدة وبينها من الاختلاف كما بين الصين

وأوربة الحديثة ، أو كما بين الشعوب السامية واليونان في العصور الغابرة •

ففي بعض الأمم يتوقف هذا الفن عند السجع الذي يتردد في الفقرات القصيرة كسجع الكهان ، فاذا طالت القصيدة روعي فيها تنسيق الأسطر المتوازية يترنم بها الجماعة في أناشيد العبادة أو التمثيل ولا تراعى فيها القافية •

وفي أمم أخرى تراعى القافية ولا يراعى الوزن الا بالمقدار الذي يسمح بمساوقة الغناء والترتيل • ويلاحظ أن شعوب الصين التي غلب عليها هذا التطور وظهرت القافية في صياغة شعرها قد عرفت الجمل والخيمة ولا يزال مسكنها المعروف « بالباجودا » مبنياً على أشكال الخيم البدوية وأوضاعها •

وفي الأمة العربية وحدها تم التطور فانتظم الوزن بتفعيلاته وأسبابه وأوتاره وروعيت فيه القافية ، وقامت صياغة الشعر فناً خالصاً مستقلا عن الغناء ، يعرف بأسماء

بحوره وقواعد أوزانه ولا يلحق بشخص هذا الناظم أو ذاك في تعريف أساليبه وتمييز أقسامه .

ولا يعزى هذا الفارق النادر الى الحداء وحده أو الى انفراد الحادى بالغناء ، بل يعزى اليهما معاً مقترنين بتلك الحساسة السمعية التى تفرق بين مخارج الحروف ودقائق النغم ، وهي مشتركة غير مميزة في لغات كثيرة .

ولسنا هنا بصدد البحث في موضوعات الشعر ولا في مذاهب الشعراء ، فانه معرض من البحث لا سبيل فيه الى ترتيب السابق والمسبوق ، وانما يعنينا السبق المحقق بشواهد الحس والواقع وهو السبق الى فن الصياغة الشعرية ، فلا نزاع هنا في تطور هذا الفن بين عرب الجزيرة قبل تطوره بين العبريين من القبائل السامية ، وبين اليونان من الشعوب الهندية الجرمانية .

... ونهاية المطاف

ولعلنا في نهاية المطاف قد اتضح لنا المقصد الذى توخيناه وأجملنا بيانه فى كلمة التمهيد لهذه الرسالة .
فهو تصحيح الأوهام الشائعة بين الغربيين عن تخلف الأمة العربية فى ميادين الثقافة والحكم عليها أبداً ، وفى جميع الأحوال ، بأنها تبع مسبوق يقتدى باليونان فى ثقافة الفكر ، بالعبريين فى ثقافة العقيدة ، وليس للأمة العربية سابقة من سوابق الفضل يدين لها أولئك اليونان وأولئك العبريون .

وقد لج الأوربيون فى هذه الدعوى لجاجة بغيضة تتكشف عن سوء نية ، ويبدو عليها كأنها تتعسف فى البحث عن أسباب التجنى والانكار فتخلقها خلقاً وتحيد عن الطريق السوى حيداً ، لكى تنتهى من ذلك الى قدح فى الطبيعة العربية وتمجيد لطبيعة من طبائع الأمم سواها ، حيثما تكون .

فقد يترخصـــون أحيـاناً فى نسبة الفضـل القومى أو العنصرى الى سلالة هندية ، لأن الأوربيين يدخلون فى الجامعة الهندية الجرمانية ، اذا دعت الضرورة •

وقد يترخصون فى نسبة الفضل القومى أو العنصرى الى سلالة صـفراء أو طورانيـة ، لأنهم قد يعادونها اليوم ولكنهم لم يرثوا من أجدادهـم عداوة لهـا من عصـبيات القرون الوسطى •

وقد يترخصون فى نسبة الفضل القومى أو العنصرى الى العبريين ولو كان المترخصـون ممن يعادى اليهود فى المنافسـات الاقتصـادية أو العملية ، لأنهم لا يعدمون بينهم وبين هؤلاء اليهود صـلة قديمة حين كانوا يوما من الأيام شعب التوراة ! •

أما الأمة العربيـة فلا رخصة معها من هذه الرخص التى يصطنعها أعداؤها المتعصـبون عليها ، بل تختفى كلها ويحل محلهـا عداء الميراث التاريخى ، وعداء الاستعمار ، وعداء الجهل ، وعداء الأنانيـة التى تغرى الجماعات أحياناً بالتحزب والأثـرة كما تغـرى الآحاد من الناس • فليس

أيسر من تصديقهم لكل فرية تفترى عليها ، وليس اسرع من انكارهم لكل محمدة أو سابقة من سوابق الفضل تنسب اليها •

هذه اللجاجة البغيضة هى التى نريد أن نقضى عليها ونقضى على آثارها فى أذهان المتـأثرين بهـا من صرعى المذاهب الأجنبيـة بيننـا نحن الشرقيين ، وهم ـ للأسف الشديد ـ غير قليلين •

ولكننا لا نريد أن نقضى عليها ونضع فى مكان الخطأ المنكر خطأ آخر من قبيله •

لا نريد أن نمحـو فضـلا لصـاحب فضل ، ولا أن نبخس حقاً لصـاحب حق ، ولا أن نبطل احتـكار المزايا الانسـانية على أناس لـكى ننقل هذا الاحتـكار الى أناس آخرين •

كل ما نريده أن ندفع شبهات القصور الأبدى المفترى على أمة عريقة حية ، كان لها فضلها العميم على الانسانية ، ويرجى أن يـكون لها فضـل مثله أو يفوقه على آجيالها

المقبلة ، وهي في مقامها الأوسط بين القارات ، وبين العقائد والثقافات .

ولقد كان نصيب الأمة العربية من تلك الشبهات « نصيب الأسد » ان صح هذا التعبير ، فأصابها منها أكبر نصيب تصاب به الأمم ، منذ أيام الشعوبية الى أيام الاستعمار والتبشير والآرية والشيوعية ! .

كان يقال عن العرب انهم بعثوا بالدين ولم يبعثوا بالدنيا .

وكان يقال « انه لا يفلح عربي الا ومعه نبي » .

وكان يقال انهم لا يصلحون في دولتهم وفي غير دولتهم الا محكومين .

وقالوا ان العرب لا يحسنون صناعة الحكم ولولا ذلك لما خرجوا من الأندلس بعد الغلبة عليها عدة قرون .

وقالوا انهم لا يحسنون فنون الحضارة ولولا ذلك لكان لهم فن جميل غير نظم القصيد .

وقالوا انهم لا يحسنون من أعمال المعاش غير

ما تعودوه فى البادية من رعى الابل والماشية ، ولولا ذلك لما غلبهم طراق بلادهم من الغرباء على أسباب المعيشة .

وكل أولئك الدعاوى الكبـــار أضعف من أن يثبت على النظـر المتـأمل لحظات ، فضلا عن الثبات في مجرى التاريخ .

فمن هم أصحاب الدولة الذين داموا في مستعمراتهم أطـول من دوام العرب ؟ أو تركوا بعدهـم أثرا أبقى على الزمن من آثارهم ؟

أهم الرومان سادة الاستعمار القديم ؟ أم هم البريطان سادة الاستعمار الحديث ؟

ان الرومان خرجـوا من كل وطـن دخلوه ، ولم يستطيعوا أن ينشروا ديانتهـم فى أمة حكموها ، بل كانوا هم الذين انقادوا آخر الأمر لديانة المحكومين .

أما الانجليز فقد خرجوا من الولايات الأمريكية بعد أن سكنها منهم معظم المهـاجرين اليها ، وقد خرجوا من الهند بعد أن اسـتقروا فى كل بقعة من بقاعهـا أكثر من

قرنين ، ولم يمكث سادة الاستعمار القديم ولا سادة الاستعمار الحديث في مستعمراتهم كما مكث العرب في الأندلس •

والانجليز ما تركوا من آثار الحضارة والثقافة أثرا يقارب الأثر الذى أبقاه العرب في الأندلس وفى القارة الأوربية على الاجمال ، ومنه أثرهم فى عصر النهضة وعصر الاصلاح •

وقصور الحمراء والزهراء وما يماثلهما من القصور التى قامت فى الشرق على نماذج الفن البيزنطى جواب ماثل للعيان لمن ينكر على الذوق العربى فنا جميلا غير فن القصيد • فكل هذه القصور مميزة بذوقها العربى على القلاع القوطية والأواوين الفارسية والعمائر الرومانية أو اليونانية ، منذ نشأتها الأولى الى قيام الدعوة الاسلامية •

وطابع الذوق العربى هو طابع النخلة العربية بقامتها الهيفاء ، وفروعها التى تتلاقى فى عقود المربعات كما تتلاقى الأركان والأعمدة في هندسة البناء ، حيثما طبعته بطابعها

على الرغم من قيام البنائين أو المهندسين عليها من أبناء الأمم الأخرى .

وليس أبعد من البعد بين البحر والصحراء ، ولكن العرب ركبوا البحر فقبضوا بأيديهم على زمام الملاحة بين الهند وفارس وسواحل أفريقية الشرقية ، فسمى البحر كله باسم بحر العرب ، وسمى الشاطىء الشرقى من سواحل أفريقية باسم السواحل حيث يتكلم الافريقيون الآن باللغة السواحلية كما يسميها الأوربيون .

والتجارة من أسباب المعيشة ، فمن الذى بلغ بها ما بلغه العرب فى الهند وأندونيسية وأفريقية الوسطى ؟

انها بلغت على أيديهم أن تكون فتحا فى عالم الروح ، ولم تكن فتحا فى عالم المال وكفى ، اذ أصبح فى تلك البقاع قرابة مائتين من الملايين من المسلمين لم يعرفوا دينهم من غير أولئك التجار الناجحين .

هذه الوقائع تصحيح بين لدعوى العصبيات الجنسية يرشد العقل البشرى الى الصواب فى مسألة من أخطر

المسائل العالمية ، ذات الأثر المتشعب الى كل زاوية من زوايا العالم ، وكل علاقة من علاقات بنى الانسان .

نعم . هى تصحيح للعقل البشرى يأتى فى أوانه وليس قصاوى الأمر فيها أنها دفاع عن العرب أو تبرئة لهم من أقاويل دعاة العصبية المستعمرين والشعوبيين والمرددين لأصداء الغابر المهجور .

والرأى الجلى فى هذه الدعاوى العصبية اذن أنها من قبيل « الاشاعات » التى تروجها المصالح الى حين ، ولكن هل هى اشاعات تبتدىء وتنتهى حول النزاع على المصالح ومفاخر الأنساب ؟ وهل نفهم من بطلان الدعاوى العنصرية أن عناصر السلالات تتساوى فى ملكات العقول ومزايا الأخلاق ؟

ان من يقول بذلك ينقض الواقع الشاهد فى الحاضر كما ينقض الواقع الذى حفظته التواريخ ، فلا نكران لاختلاف الأمم فى التفكير والسلوك ، وانما ينكر الباحث المنصف أن يعزى هذا الاختلاف الى أسباب أصيلة ينفرد بها عنصر من عناصر البشر دون سائرها ، وينصف

الأجنـاس جميعاً حين يعزو كل مزية الى أسبابها الطبيعية التى تتأثر بها كل أمة تعرضت لمؤثراتها ، ولا يقصر مزية من المزايا على قوم يحتكرونها فى جميع الأحوال •

والمثلان البارزان اللذان يذكران فى معرض التمييز بين الخصائص الجنسية كفيلان بابراز هذه الحقيقة فى نصابها الذى يستقر عليه البحث عن مزايا العقول والأخلاق بين جميع الشعوب •

هذان المثـلان هما مثـل اليونان واليهود : أولهما يضربونه بطلب العلم ، وثانيهما يضربونه بطلب المال •

فعندهم أن اليونان قد امتـازوا بحب المعـرفة حبـا للمعرفة ، لأنهم نموذج العقل الأوربى المطبوع على الفهم وحب الاسـتطلاع • وأن اليهود قد امتازوا بالمهـارة الاقتصـادية فلا يضارعهم فيها شعب من شعوب العالم منذ عهد بعيد •

والواقع أن شـعوب العالم العريقة قد طلبت المعرفة كما طلبها اليونان ، ولـكن الشعوب التى عاشت فى أودية الأنهار الكبـار ـ كما تقدم ـ قامت فيها الكهانة القوية الى

جانب الدولة القوية فتحولت المعرفة الى الكهانة ، وأحاط بمعارفهـا ما لابد أن يحيط بها من أسرار الكهـانة وقيود التقاليد ، وهكذا حدث في القارة الأوربية نفسها يوم قامت فيها السـلطة الدينيـة القوية ، وحجرت على المفكرين أن يتعرضـوا لمبـاحث المعرفة فى أصـول الأشياء وحقائق الوجود .

والواقع أن اليهود لا يفوقون غيرهم فى القدرة على تحصيل المال ، وقد تسابقوا بميدان واحد فى وادى النيل مع الأرمن واليونان والجاليـات الشرقيـة فلم يسبقوها فى تحصـــيل الثروة ، ولا فى تنويع مواردها ، ولعلهـم لولا تضامنهـم فى بلاد العـالم التى ينتشرون فيها يرجعون الى ما وراء الصفوف الأولى فى المهارة الاقتصـادية وفى تدبير المال على الاجمال .

فلا احتكار لمزية قومية بغير سبب ولا فرق بين الأمم اذا تشابهت الأسباب .

وأمة العرب بين هذه الأمم لم تقصر ولن تقصر عن أمة سابقة فى مضمارها حيث تتهيأ لها أسباب العلم وتتمهد

لها السبل الى الغاية ، ولن تقف هذه الغاية دون أمد من الآماد •

***

واذا كان من حقنا نحن الشرقيين جميعا أن نؤمن بهذه الفكرة الصالحة ، فمن واجبنا أن نحترس من مغبة الاغترار بها ومن سوء الفهم الذى يخشى أن تسوقنا اليه •

فمن سوء فهمها أن نفهم أننا مبرأون من العيوب معصومون من الخطأ ، أو نفهم أن عيوبنا هينة لا تكلفنا المشقة في اصلاحها ، وأن أخطاءنا قليلة لا تعاودنا فى كل آونة من حياتنا مع أنفسنا أو حياتنا مع أقوامنا •

كلا بل لنا عيوب غير هينة ، ولنا أخطاء غير قليلة ، غاية ما يعزينا فيها أن نؤمن بأننا قادرون على تصحيحها وعلى اجتنابها ، وأنها ليست بالأبدية التى لا تفارقنا كما زعم المفترون علينا •

أما تلك العيوب التى تفترى علينا فهى التى تفرض علينا القصور كارهين وطائعين كما يزعمون ، وهى التى نعرفها أو نجهلها على حد سواء ، لأن الحيلة فيها عبث ، والأمل في الخلاص منها مفقود •

تلك العيوب ننكرها ونشتد في انكارها ، وليس قصارانا في تبرئة أنفسنا منها أننا نحب أنفسنا ، وأننا نشتهي أن نحمدها بحقها أو بغير حقها ، وانما ننكرها ونشتد في انكارها لأننا نستند الى خير سند من الواقع الذي لا ريب فيه ، ولأننا نعلم من هذا الواقع أننا سبقنا السابقين الى ثقافة المعرفة وثقافة العقيدة قبل أربعين قرناً ، وأننا أعطينا العالم حظاً منهما لا يزول منذ أربعة عشر قرناً ، وأن ما كان في ماضي الزمن غير مرة ليكونن غير مرة في الزمن القريب ، وفي الزمن البعيد ◆

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٤/٤٣٣٧

الثمن ٥ قروش

هذا الكتاب :

يهدف هذا البحث الذى كتبه أديبنا الكبير عباس محمود العقاد الى أن يدفع شبهات القصور الثقافى الأبدى المفترى على أمة عريقة حية ، كان لها فضلها العميم على الانسانية ، هى الأمة العربية، ويرجى أن يكون لها فضل مثله ، أو يفوقه على أجيالها المقبلة ، وهى فى مقامها الأوسط بين القارات ، وبين العقائد والثقافات ٠

39



الكتاب القادم :

الانسان والبحر

تأليف : ربان عبد الفتاح الشافعى